في تاريخ الامبراطورية البيزنطية

التاريخ السرى لبروكوبيوس

حياة الامبراطور جستنيان وثيودورا

ترجمة : الدكتور صبرى أبو الخير

التاريخ السرى

القرن السادس الميلادى

جانب من جوانب حياة الإمبراطور جوستنيان وزوجته تيودورا وقائده المغوار بليزاريوس وزوجته أنطونينا صورة سيئة

تأليف المؤرخ البيزنطى الشهير

« بروكوبيوس »

ترجمة

د. صبرى أبو الخير سليم
كلية الآداب - جامعة المنوفية

الطبعة الأولى
٢٠٠١

عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المشرف العام : دكتور قاسم عبده قاسم

المستشارون

د . أحمـــــد إبراهيم الهـــــوارى

د . شـــــوقى عبد القوى حبـــــيب

د . عـــلـــى الســـيـــد عـــلـــى

د . قـاســـــم عـبده قياســـــم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشـر : عين للدراســـات والبحـــوث الإنسانيـــة والاجتماعيـــة

– ٥ شـارع ترعة المريوطية – الهـرم – ج.م.ع – تليفون ٣٨٧١٦٩٣

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5 , Maryoutia St . , Alharam - A . R . E. Tel : 3871693

P . B 65 Khalid Ben - Alwalid , Alharam P . C 12567

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

كان الإمبراطور جستنيان الأول شخصية تاريخية نادرة. فقد اعتبر نفسه امتداداً لأباطرة روما الوثنية من جهة، كما أنه كان ضليعًا فى القانون واللاهوت من جهة أخرى. وكان حكم جستنيان الذى بقى طويلاً على وشك الانهيار لولا إرادة زوجته تيودورا التى ارتقت العرش بعد أن كانت راقصة فى سيرك. وبعد أن استعاد جستنيان عرشه الذى أوشك على الضياع بدأ مشروعه الاسترادادى لإعادة توحيد الإمبراطورية. وكان ذلك مشروعًا يحتاج إلى دعاية وتأييد واسعين. وكان «بروكوبيوس» واحداً من الذين روجوا للإمبراطور البطل.

ولكن فشل جستنيان بسبب استنزاف موارد الإمبراطورية فى الحرب القوطية، وفشله فى سياسته الدينية تجاه الولايات الشرقية؛ جعل معظم أتباعه ينفضون من حوله. وكان «بروكوبيوس» واحداً من هؤلاء أيضا. بيد أن بروكوبيوس لم يكتف بالسكوت وبدأ يهاجم الامبراطور الذى كال له المديح بلا حساب عندما كان فى أوج قوته. ويمثل كتاب «التاريخ السرى» الذى كتبه بروكوبيوس نموذجًا من كتابات الدعاة ذوى الوجوه المتقلبة، وهو نوع من الدعاية المسمومة ضد الإمبراطور والإمبراطورة اللذين مدحهما من قبل. وهو أيضا مثال على التقلب اللاأخلاقى للدعاة ومروجى الدعاية السياسية فى كل عصر وأوان.

والترجمة العربية التى يقدمها الدكتور صبرى أبوالخير فى هذا الكتاب يمكن أن تعتبر إضافة هامة للمكتبة العربية. فعلى الرغم من أن الكتاب يتناول سيرة إثنين من حكام الإمبراطورية البيزنطية فى تاريخها الباكر، فإن الكتاب يحمل كمًا هائلاً من التهم والشتائم والأوصاف السلبية لكل من الإمبراطور والإمبراطورة فى خط يكاد يكون تناقضًا مع اتجاهات كتابات السِّيَر الملكية. والكتاب متعة فى قراءته لاسيما فى هذه الترجمة السلسلة التى يُسعد «دار عين» أن تقدمها للقارىء العربى. والله الموفق والمستعان

دكتور قاسم عبده قاسم

مقدمـــة

يقف بروكوبيوس فى مصاف المؤرخين البيزنطيين المرموقين الذين أرخوا للإمبراطورية البيزنطية فى فترات مختلفة على مدى أحد عشر قرنا وربع قرن، والذين يحفظهم التاريخ عن ظهر قلب أمثال ايوزبيوس، وثيوفيلاكت، وبسيلوس ، وآناكومنينا ، ونكيتاس خونياتس ، وغيرهم من المؤرخين الذين شاهدوا الأحداث ولذلك كانوا شهود عيان لها، وكتبوا عنها بموضوعية إلى حد كبير للتاريخ وليس لأحد بعينه اللهم إلا فى بعض الحالات النادرة التى امتدح فيها مؤرخ ما إمبراطوراً ما. ولكن بروكوبيوس فى كتابه «التاريخ السرى» الذى نحن بصدده أغفل الموضوعية وأغفل التاريخ وكتبه للتنفيس عما يثور فى داخله ضد الإمبراطور وزوجته .

وكذلك يقف جوستنيان فى مصاف الأباطرة العظام الذين بذلوا كل جهودهم ووهبوا كل حياتهم لإصلاح أحوال الإمبراطورية من أمثال قسطنطين، وثيودسيوس، وموريس ، وهرقل ، وباسيل الثانى، والكسيوس كومنين، وميخائيل باليولوجوس وغيرهم، إلا أن بروكوبيوس أضاع كل أعماله واعتبرها مثالا للفوضى والفساد والخراب . وحقيقة الأمر أن الإمبراطور جوستنيان اتبع سياسة داخلية وخارجية كان يقصد من ورائها الحفاظ على الإمبراطورية وتقويتها ولكن الرياح أتت بما

لاتشتهى سفن الإمبراطورية وجاءت النتيجة عكسية بعد موت الإمبراطور، ولكن ليس بالصورة التى صورها مؤرخنا بروكوبيوس فى «التاريخ السرى».

وباعتبار بروكوبيوس قريبا من الإمبراطور بحكم وظيفته فى البلاط فقد استطاع الإطلاع على السجلات الرسمية ، كما أنه كان شاهد عيان لهذه الفترة بأكملها فقد مات بعد الإمبراطور. وكتب عن الإنشاءات المعمارية والمبانى فى عصر جوستنيان فى كتاب خاص بذلك بدقة واستفاضة وإشادة بأعمال الإمبراطور. ولأنه كان صديقا ومستشاراً للقائد البيزنطى المغوار بليزاريوس ورافقه فى كثير من حملاته الحربية ضد الفرس والقوط والوندال فقد تمكن من الكتابة عن هذه الحروب فى كتابه الخاص بذلك «الحروب» كشاهد عيان.

ويشك الباحث لأول وهلة أن كاتب «التاريخ السرى» ليس هو بروكوبيوس وذلك بالمقارنة بما كتبه فى كتبه السابقة «الحروب، والتواريخ ، والمبانى» بما فيها من مدح وإطراء للإمبراطور جوستنيان، أما التاريخ السرى فيختلف تماما فى الأسلوب والهدف فيطعن الإمبراطور وزوجته بأقذع الألفاظ والصفات الدنيئة . ويبدو أن الظروف القاسية التى مرت ببليزاريوس فى السنوات الأخيرة من حكم جوستنيان وزوجته تيودورا، وما ناله من أذى على يديه ويد زوجته أنطونينا ، فحزن بروكوبيوس على صديقه الحميم وما حدث له جعل موقفه يختلف تماما وينقلب ضد الإمبراطور وزوجته ، كما انقلب ضد صديقه بليزاريوس لموقفه اللين مع زوجته أنطونينا رغم ما فعلته به. ولذلك يطفح الكتاب بكثير من الأذى للإمبراطور بصفة خاصة يدل على حقد دفين وعدم حب من بروكوبيوس

للإمبراطور وزوجته. فيصف جوستنيان بأنه ابن شيطان ، ومزور ، ومخادع ، وسفيه، ومبذر، ومرتشى، ومحب لسفك الدماء سفاح، ونصاب ، ولص، وجبان ناقض للعهد، هذا فضلا عن أنه دمر الإمبراطورية بأكملها. كما وصف تيودورا بأنها عاهرة خليعة لأقصى درجة، دبرت وزوجها الخلاف المصطنع بينهما فى أمور الشعب ليضحكا على الشعب ويدمراه ويخربا اقتصاده.

وهكذا ضيع بروكوبيوس فى كتابه «التاريخ السرى» كل أعمال الإمبراطور جوستنيان التى تعتبر عظيمة فى نظر جميع المؤرخين المعاصرين والمحدثين، فقد قام بثورة إصلاحية داخلية وخارجية فى جميع مناحى الحياة، وهذا ظلم فادح من بروكوبيوس للإمبراطور جوستنيان الذى يعتبر من أعظم الأباطرة البيزنطيين الذين حكموا الإمبراطورية وعملوا جاهدين بكل ما أوتوا من قوة للحفاظ على كيان الإمبراطورية من سنة ٣٣٠م وحتى سنة ١٤٥٣م.

وعلى أية حال فإن بروكوبيوس يمتاز بالكثير من السمات التى تميز المؤرخ مثل الدقة والموضوعية والأسلوب السهل السلس، كما أنه يمتاز بالنظرة التاريخية المستقبلية فهو لم يكتب لمعاصريه فحسب بل للأجيال القادمة، فهو بذلك يكتب للتاريخ .

والله الموفق والمستعان،

صبرى أبو الخير

الزقازيق فى ١ / ٩ / ١٩٩٩

مقدمة الترجمة الإنجليزية

إن التاريخ السرى عمل إبداعى ، تثقيفى ، شيق، أصلى ولكنه يقدم لنا تساؤلات غريبة. إن العنوان المعروف به عادة يلائمه تماما، ولكنه ذو أصل لاتينى حديث ولايتضمن تشابها بالعنوان الإغريقى والذى لم يكن المؤلف مسئولا عنه . لقد سماه الاغريق Anecdota (أقصوصة حكاية). أما جيبون[1] E. Gibbon فقد كانت ترجمته مضللة وهى Anecdotes بواسطة سويدس مؤلف القاموس. اتضح أنها تعنى أشياء لاتنشر واستعملت هذه الكلمة لأن الكتاب لم يُنشر فعلا فى عهد المؤلف ولانستطيع أن نجزم كم من الوقت مر بعد وفاته حتى نشر هذا الكتاب هذا إذا كان قد نشر مطلقا بالمعنى المفهوم.

وهنا يرد أول تساؤل لنا . لما كُتب هذا الكتاب طالما لم يتيسر نشره؟. أما التساؤل الثانى فهو كيف يكتب المؤلف كتابا يطير فى وجه Flyin the Face كل ما كتبه من قبل وربما أصعب من أن يتوافق مع ما كتبه فيما بعد. هل غير رأيه مرتين؟ هل كان يؤمن بما كان يكتبه فى كل مرحلة؟ هل كان يكتب لمجموعات مختلفة من القراء؟ هل كان هو فعلا المؤلف لكل هذه الكتب أم أن اسمه قد ألحق بالكتاب الأوسط عن طريق الخطأ ؟ هذا الكتاب كان يبدو نوعا مريضا من الكتب بالنسبة لكتبه الأخرى، وهذا التساؤل الأخير لسنا بصدد التصدى له الآن.

دعنا الآن نأخذ فكرة عامة عن مؤلفنا وكتابه تاركين كلتا المشكلتين

جانبا فى الوقت الحالى. لقد عاش بروكوبيوس فى فترة تمج بالأحداث الهامة الكثيرة ، فترة مميزة فى التاريخ لأنها شهدت نهاية الفترة الكلاسيكية ومولد العصور الوسطى، وفى عهد والده انهار النصف الغربى من الإمبراطورية الرومانية وعلى التلال السبعة بجوار التيبر Ti-ber لم يعد هناك مدينة إمبراطورية(able regere in perio Populis).

وكانت حينئذ مدينة القسطنطينية هى العاصمة الوحيدة ، سيدة المجموعة التى كانت لاتزال تسمى نفسها رومانية ، ولكن اختفت منها السياسة الرومانية، والأخلاقيات الرومانية ، والديانة، وفن العمارة الرومانى، وحتى الأزياء الرومانية.

لقد برز الكثير فى الوقت الذى يعيش فيه بروكوبيوس لأنه كتب عنه، وكانت كتابته موضحة جدا، وكان هناك الكثير مما يُسجل عن هذه الحقبه لدرجة أنه استطاع أن يكتب مجلداً آخر عنها، وكانت كتابته عن معلومات جديدة وخبرات شخصية، ونادراً ما كان يسجل أحداثا ليوم سابق، فهناك من يفسرون أحداث التاريخ بالإشارة إلى الأسباب الاقتصادية والأسباب المادية الأخرى، أما بالنسبة لبروكوبيوس فإن التاريخ قد سُجل عن طريق الأشخاص ، وأحيانا عن طريق الله نفسه God Hinse، ولكن عن طريق البشر بصفة عامة بتأثير من العواطف البشرية بالرغم من كونها عرضة لتأثير الجن، والحقيقة أن هؤلاء الأشخاص كانوا شياطين على شكل بشر.

إن كتبه ليست سيراً شخصية، ولكنها تاريخ دوّن فيه الأحداث فى ميادين المعارك وفى القصور وفى البيوت بأدق التفاصيل ، ومع هذا فهى بصفة مبدئية كتب عن أشخاص وهذا ينطبق على التاريخ السرى

أكثر من أعماله الأخرى. هنا لانقرأ كثيراً سوى عن أعمال ودوافع وشخصيات اثنين من الرجال واثنتين من النساء، أما العديد من الأفراد الآخرين الذين يظهرون على صفحات هذا الكتاب الصغير فإنهم يقدمون بطريقة انفرادية من منطلق ما أدوه لصالح هؤلاء الأربعة أو ما عانوه على أيديهم.

أما الرجلان فهما أولا: جوستنيان وهو ما سمى أحيانا بالعظيم، وكان حاكما لمدة سبع وأربعين عاما للدولة الرومانية. أما الثانى: فهو بليزاريوس الجندى المميز فى عصر وأحد أعظم القادة الذين قادوا جيوش الرومان على الإطلاق. أما المرأتان فإن أهميتهما تنبع من شخصيتهما المسيطرة وانعدام مبادئهما ، وهما : تيودورا التى كانت زوجة جوستنيان لمدة خمس وعشرين عاما وشريكته فى حكم الإمبراطورية Joint Ruler، والأخرى أنطونينا الساحرة التى لاتقاوم والذى كان زوجها بليزاريوس فى يديها بلاحول ولاقوة.

إنه من الأهمية بمكان أن نحكم على هؤلاء الأربعة من منطلق أنه فى كل عشرين صفحة من هذا الكتاب كانت تظهر أنطونينا على الصفحة الثالثة ، وكان بليزاريوس يظهر على الصفحة الرابعة ، وثيودورا على العاشرة، وجوستنيان على الصفحة الثامنة عشرة .

إن الفترة التى تعنينا أساسا تمتد من ميلادبروكوبيوس وحتى كتابة التاريخ السرى وهى فترة من خمسين عاما تكون النصف الأول من القرن السادس فى حقبتنا التاريخية. لقد كانت هذه الفترة مليئة بالحروب والعربدة ، مليئة بالطاعون، والزلازل ، والفيضانات، مليئة أيضا بالأنشطة الخلاقة الهائلة فى فن المعمار والآداب.

وقبل فحص مجرى الأحداث أثناء الخمسين عاما هذه ، دعنا نضعها فى موضعها السليم عن طريق رسم إطار بسيط للمراحل التاريخية التى قادت إليها منذ يوم فى عام ٢٧ قبل الميلاد عندما انتحل لقب أغسطس وحتى يوم وفاته بعد أربعين عاما كان أوكتافيوس قيصر - أول صفوف الإمبراطورية- حريصا على تسمية نفسه الأول أو المواطن الأول، وامتنع عن الأبهة حتى يبقى على الوهم بأن القوة بقيت فى أيدى مجلس الشيوخ والشعب ورجال القضاء التاريخيين، ثم حذا خلفاؤه حذوه على نطاق واسع لفترة تناهز الثلاثة قرون، وبالرغم من زيادة المركزية والبيروقراطية كان الادعاء مكشوفا ، ولكن مع دقلديانوس[٢] الذى اعتلى العرش فى عام ٢٨٤ بعد الميلاد أسقط هذا الادعاء تماما بأكمله.

وقسمت السلطة بين اثنين من الأوغسطينين واثنين من القياصرة، وكان دقلديانوس يشغل المكان الأول[٣]، ولم تعرف هذه العودة أية حدود دستورية فقد كان الحكام معروفين على الملأ بأتوقراطية (استبداد) مطلقة ، واختفت البساطة وحل محلها الأبهة والعظمة ، ولذلك استبدلت كرامة الغرب بفخفخة الشرق وأصبح المواطن الأول هو السائد والسيد المتسلط، وأصبح زملاؤه المواطنون رعية له وعبيدا ، كما استبدلت الشملة[٤] التيلية بالملابس الحريرية المتقنة الصنع، وعصابة الرأس أو الإكليل المزيف بتاج مرصع بالجواهر وأمام جلالة الإمبراطور كان أعظم النبلاء يؤدون فروض الطاعة والولاء.

وشيد الحكام عواصمهم فى غالة وإيطاليا والبلقان وآسيا الصغرى، ولم تعد روما ذات قيمة ، وعند تنحى دقلديانوس نشبت حرب ضارية بين الثلاثة الباقين ، ولم يعد هناك أمل من ستة منافسين على السيادة

فى هذا الوقت الذى بدأ فيه قسطنطين الصغير معركة كان لها أن تنتهى بأن يصبح الحاكم الوحيد للإمبراطورية بأكملها[٥].

ولذا كان حكمه جديراً بالاهتمام لحدثين ذو أهمية بالغة: الاعتراف بالديانة المسيحية [٦]، ليس مجرد دين مسموح به ولكن كدين للدولة، وبناء عاصمة جديدة [٧]فى المستعمرة الإغريقية القديمة بيزنطة والمسماه من الآن فصاعداً القسطنطينية ، أما بروكوبيوس فكان دائما ما يشير إليها باسمها القديم، أما روما فكما أشرنا أصبحت تنتمى إلى الماضى.

إن السلام الذى جلبه هذا الإمبراطور العظيم كان قصيراً قصر حياته، وبعد وفاته عادت المنافسات القديمة وبدأ أبناؤه الثلاثة الباقون حربا ضد بعضهم البعض . ولهذا فقد حدث أنه بعد ٢٧ عاما قسمت الإمبراطورية مرة أخرى ، فأخذ فالنز الأجزاء الشرقية، وفالنتيان الأجزاء الغربية ، وبقيت هكذا مقسمة ماعدا فى حكم ثيودسيوس الذى كان حكما قصيراً لكن بارزاً.

ولحق هذا الحكم سلسلة من الغزوات البربرية على إيطاليا ، وكانت هذه الغزوات شاملة لدرجة أنه فى عام ٤٧٦م[٨] انهارت الإمبراطورية الغربية أخيراً، وتنحى الإمبراطور الأخير الذى كان اسمه - لسخرية التاريخ- رومولوس أوغسطولوس. ومنذ ذلك الحين فصاعداً لم يكن هناك سوى الإمبراطورية المتمركزة فى بيزنطة والتى كان عليها أن تبقى ألف عام أطول من الأخريات إلى أن عصف الأتراك بالإمبراطورية البيزنطية نفسها وقتل قسطنطين الثالث عشر[٩] وهو يحارب حتى النهاية ورُفع الهلال فى كنيسة الحكمة المقدسة (آيا صوفيا) والتى كانت

إحدى عجائب الفن المسيحى ، وكانت هذه لحظة جلده الإمبراطور الذى كان الوجه الرائد فى التاريخ السرى.

عندما أرسى رومولوس المسكين سلطاته كان زينون[١٠] Zenon قد احتل عرش الشرق منذ عامين وهو أول أربعة أباطرة ظهروا على صفحات بروكوبيوس . إن لزينون ذكرى عابرة، أما أنستاسيوس[١١] الذى خلفه فى سنة ٤٩١م ورد أكثر من مرة لأنه كان على النقيض من جوستنيان ، فبينما ملأ الأول بيت المال أفرغه الأخير، ووفر الأول إمداداً كافيا للجنود القائمين بالخدمة الفعلية ، أما الثانى فقد جَوَّعهم وسرقهم.

هناك الكثير مما يقال عن جستين[١٢]، فاعتباره خال جوستنيان فقد مكنه (مكن جوستنيان) أن يخلفه وسمح له أن يكون حاكما فاضلا للإمبراطورية خلال حكمه الاسمى ، وجعل منه شريكا فى حكم الإمبراطورية Joint Ruler قبيل بضعة شهور من وفاته ، وزيادة على ذلك فقد عبث بالقانون ومكّن هذا الشاب الأحمق من الزواج من تيودورا التى لايمكن الحديث عنها (Unspeakable) وبهذا جلب بؤسا لايمكن سرده على الشعب الرومانى ، وهو بهذا قد وضع فى صفحات قليلة عن ثلاثة من الأباطرة كانت فترة حكمهم جميعا أربعة وأربعين عاما.

ولقد كرس مؤلفنا بقية كتابه لحكم جوستنيان أو لنقل ثلاث وعشرون عاما من هذا الحكم والتى اعتبرها شؤما كاملا. لقد ولد فلافيوس أنيستانس جوستنيانوس من أصل ريفى فى Tauresium طوروس فى Skoplji طفلا لأبوين قوطيين فى الليريا Illyricum ربما فى عام ٤٨٣م، وقد تبناه خاله جستينوس وجعل لنفسه شعبية فى مجلس

الشيوخ ومع الشعب حتى أنه أنتُخِب مستشاراً ومُنح مرتبة النبلاء Nobilisim .

وقدم جستين المغامر المرتزق خدمات لأنستاسيوس لدرجة أنه فى سنة ٥١٨م أصبح خليفة لهذا الملك الذى كان رجلا مسنا قدمه فى القبر مثلما قال بروكوبيوس، وكان سنه المتقدم أبعد من أن يجعله يقوم بواجبات مركزه المرموق بكفاءة وأكثر من هذا فقد كان غبيا غباء الحمار، وكان أميا لدرجة أنه كان غير قادر حتى على أن يقوم بتوقيع اسمه.

ولقد دام حكمه تسع سنوات وفى عام ٥٢٧م خلفه ابنه المتبنّى الذى هو وزوجته الشريكة فى الحكم- ساس بمفرده السلطة التى كان قبل ذلك قد شاركه فيها جستين، وحكمت الإمبراطورة لمدة إحدى وعشرين سنة، وحكم زوجها ثمانية وثلاثين عاما إذا بدأنا العد منذ وفاة جستين .

لقد تزوج جوستنيان تيودورا قبل تبوئه الحكم بأربع سنوات بعد أن كان قد أقنع خاله بإلغاء القانون الذى كان قائما لفترة طويلة، والذى كان يمنع أحد أعضاء السناتو (مجلس الشيوخ) من الزواج بعاهرة والتى كان العالم كله يعرف أنها كذلك. لقد كان جوستنيان يبلغ من العمر ٣٩ أو ٤٠ سنة، وكانت تيودورا فى العشرين فقط وربما حتى لم تصل لهذا السن، فلم تكن قد ولدت حتى العقد الأول من هذا القرن، ومع هذا فقد حوت الكثير فى هذه السنوات القليلة. لقد ولدت تيودورا فى بيزنطة ، أو كما قال البعض فى قبرص وطن أفروديت، وكان والدها حارس دببة فى Amphitheat، واعتلت المسرح فى عمر مبكر جداً كممثلة كوميديا متجولة، ومع أول لحظة متاحة أصبحت مثل أختيها عاهرة من أدنى الأنواع أعطت نفسها لثلاث رزائل . أحدها لايمكن تسميتها حتى فى

أيامنا الصريحة هذه ، لقد كانت سوقيتها مروعة وشهوتها - إذا صدق بروكوبيوس - لاتضارع، ولايمكن إشباعها ، ونحن لانتوقع هنا وصفه المفصل المثير، لقد حملت عدة مرات وفى أحد المرات التعيسة نجحت فى قتل أطفالها قبل أن يولدوا . وحينئذ قابلت جوستنيان الذى أصبح عبدها العاجز ، وجعلها عشيقته ثم أخذها زوجة له بمجرد أن سُمح له بهذا.

لقد كانت ثيودورا أكثر بكثير من مجرد زوجة للإمبراطور ولو أنها زوجة مخلصة والحكم عليها هنا من منطلق أنه من وقتها لم تفعل أى تهم منافية للياقة سلوكها الشخصى فيما عدا عاطفتها المزعومة لأريوبندس Areobindus والتى كانت فضيحة دبرتها بنفسها بأن جعلته يُجلد بقسوة، وتأكدت بعد ذلك أنه لن يظهر مرة أخرى. ولقد كانت تيودورا تنصح جوستنيان فى كل مجال من مجالات الحكم وكانت تمده بالثبات الذى كان ينقصه .

لقد صمم بروكوبيوس أن يصفه أكثر من مرة أنه متقلب مثل دوارة الريح ، بينما كانت تيودورا ثابتة لاتلين، لقد كان يدين لها بالكثير خصوصا فى أيام تمرد أحزاب النيقا[١٣] المروعة عندما فقد توازنه تماما وشعر بالذعر ، وكان على وشك الهروب أما هى فقد كانت تقف على أرض صلبة ، وأنقذت الموقف لصالحهما معا، وجعلته يخضع لها أكثر. لقد ساعدها بالطبع لأنها لم تكن مجرد زوجة بل شريكة فى الحكم معه لدرجة أنها كانت تستطيع استقبال السفراء من الممالك الأجنبية ، وتصر على أن يقسم موظفو الإمبراطور يمين الولاء لها كما يقسمون له تماما، وكانت تجبر زائريها على الانبطاح على الأرض أمامها.

وهذا أمر لم يمارسه أى من أسلافها على الإطلاق . ولايدهشنا كثيرا أن الجميع كان يخشاها خصوصا أنها كانت تبدو متعطشة للدم، لارحمة عندها، مصابة بالسادية «حب تعذيب الآخرين» . وكان لدى بروكوبيوس الكثير ليقوله فى هذا الموضوع ، وكان يقوله بقوة وتأكيد، ودليله فى هذا كان كدليله على موضوع سلوكها قبل الزواج هو اتفاقه مع عدد من كتاب اللاتين والإغريق فى عصر سابق، فأحدهم مثلا أخبرنا أنها كانت تقسم بالله القوى أن تسلخ أحد الرسل حيا، وفى نفس الوقت كان مشهوداً لها بكرم عظيم تجاه الفقراء، وطبعا من السهل أن يكون الفرد كريما إذا كان لديه ما يكفى لسد احتياجات كل الرغبات ويفيض ، ولهذا لم يكن هناك ما يُحيّر إطلاقا فى أن تكون ثروة هائلة على حساب الشعب.

إن الآراء سوف تتضارب حول خطتها الفريدة فى تنظيف ساحة بيزنطة بأن قيدت كل الخمسمائة عاهرة اللاتى كن يمارسن هذه التجارة وحبستهن فى إصلاحية على الجانب الآخر من البوغاز، وكان هذا قدراً - كما قال بروكوبيوس- تفضل الكثيرات منهن الانتحار دونه.

ومهما كان وصفها كزوجة لم تكن تيودور أمًا لائقة على الإطلاق فكما رأينا كانت تمارس الإجهاض بصفة مستمرة ، إلا أنها فشلت ذات مرة فى عمل مقاييسها فى الوقت المناسب وولدت ابنا من أحد عشاقها الذى اعترف بالطفل إبنا له ، ولأنه كان يعرف جيداً شراسة وتهاون هذه الأم الشابة فقد حمله إلى حيث الأمان فى البلاد العربية. وبعد وفاة الأب غامر الصبى فى الرجوع إلى بيزنطة ، وألقت الأم عليه نظرة لم يره أحد بعدها على الإطلاق.

وكذلك أنجبت طفلة ربما عندما كانت عشيقة أو زوجة لجوستنيان، وعن هذه الابنة فنحن لانعرف إلا أنها أهدت أمها صغيراً حطمت هذه المرأة القاسية حياته بإرغامه على خطبة إبنة بليزاريوس والحياة مع هذه الفتاة الطائشة وكان هذا ضد رغبة الاثنين. وكانت بهذا تخطط من أجل زواج نفعى ناضل والدا الفتاة على منعه. وبذا نقلت تيودورا إلى أبنائها القسوة التى كانت تمارسها خلال فترة حكمها ضد شخص أو آخر وضد كل طبقات رعيتها. ولابد أن الصبى أناستاسيوس كان آخر ضحاياها حيث ماتت بعد شهور قليلة من هذا الزواج الاضطرارى ، ولم تكن تزال فى الأربعينيات، أما وزجها قُدِّر له أن يعيش ضعف عمرها، وكان سبب وفاتها مرض السرطان ، وهناك دليل أنها شعرت بقدوم نهايتها.

وعن هذه المرأة كتب بريس Bryce «لم يكن هناك شك فى جمال ومواهب تيودورا العقلية وعزيمتها الصلبة: فقد كان واضحا أنها شخصية غريبة ولدت لتلمع فى أى موقف من مواقف الحياة»، وامرأة كهذه كان لها كُتّاب معجبون خصوصا ما بين عام ١٨٧٩م وعام ١٨٨٥م الذى شهد ظهور كتاب بوتنجر Pottinger الرومانسى «الأزرق والأخضر»، وكذلك دراسة حماسية عن الإمبراطوة تيودورا كتبها دبيدور Dé-bidour، ومسرحيات كتبها رنجابى Rhengabé وساردو Sardou وكلا الكتابين كان بعنوان «تيودورا» . وربما كان الفرنسيون يقدرون المرأة أكثر مما نستطيع نحن.

نعود الآن إلى الأرمل، وكان فى هذه الفترة رجلا له من العمر ٦٥ سنة، ولم يتزوج مرة أخرى ربما لأنه لم يجد أخرى مناسبة لأن تأخذ مكانة تيودورا أو ربما لأنه نال من الحياة الزوجية ما يكفيه، وأراد أن يستمتع

بأن يكون سيد نفسه مرة أخرى، ويخبرنا بروكوبيوس عن الأعوام الأخيرة من حكمه لأن التاريخ السرى قد كُتب بعد عامين فقط من وفاة تيودورا، وقد استكملت القصص التاريخية بعد أربع سنوات ، أما العمل الباقى الذى نشر قبل وفاة الإمبراطور بخمس سنوات فقد اهتم أساسا بعمله كبانى للدولة.

وبما أن العمل الحالى يحتوى أساسا على تقرير مفصل عن أعمال جوستنيان فلا حاجة بنا أن نفعل شيئا أكثر من أن نهتم بحكمه على أوسع نطاق، وهنا يمكننا أن نتفق على نقطة البداية وهى تلخيص لـ J.B.Bury «إن جوستنيان عظيم، ومشرع قوانين عظيم، ودبلوماسى عظيم ، وبانى عظيم، وكان أيضا حاميا وقائداً للكنيسة».

إن أعظم هذه المنجزات كان فى دولة القانون فلم يشغل جوستنيان العرش لفترة طويلة قبل أن يكلف عشرة من الخبراء للتخلص من الفوضى السائدة عن طريق رسم قانون رأسمالى مدنى Corpus Juris scivilis أو مجموعة القوانين المدنية (١٤)، وبعد عامين من اعتلائه العرش نشر دستوراً انشائيا Codex construction ، وتبعها بمجموعة القوانين digest بعد أربع سنوات والتى اشتملت على قرابة خمسين مجلداً، وفوق هذه التعزيزات القانونية بنيت نظما شرعية لعدة بلاد حتى أيامنا هذه.

ومع ذلك فإننا نشك إذا كان جوستنيان فعلا قد كرس نفسه للحكم بالقانون ، وهناك تنويها واحداً لهذا الموضوع هو فضح استعداده لتغيير القانون لصالحه هو أو ملائمة رغبات شريكته ، وأن يلغى القوانين

الموجودة إذا دفع لها رشوة كافية من أحد الأطراف فى قضية ما، ثم يعيد تشريعها عند أخذ رشوة أكبر من الطرف المنافس.

إن حماية وقيادة الكنيسة قد أخذت شكل محاولة إرغام الوثنيين على قبول دين الدولة- عُمِّد فى أسيا الصغرى فقط ٧٠ ألف بالقوة- وأُرْغم كل الذين كانوا مسيحيين إسما أن يقبلوا قرار مجلس خلقدونية[١٥] Chalcedon الذى اشتمل على قرار اضطهاد وحشى جماعى، ولقد ساعد هذا على تحويل رعاياه عنه وخصوصا فى مصر، وفتح الطريق أمام هجوم الإسلام بعد قرن من الزمان.

ويمكننا هنا أن نقرر دون تردد أن مجهوداته لم تفعل شيئا سوى الضرر بقضية المسيح.

إن مشروعاته المعمارية[١٦] كانت على نطاق واسع ، فعدد وحجم وجمال المبانى التى كانت تحت مسئوليته كانت متماثلة فى العظمة، ولم يكن خطأ، فى أن عدداً قليلا هو الذى بقى حتى عصرنا هذا. فقد تكلفت هذه المبانى فى بنائها تكاليف باهظة ، وفى مثل هذا الوقت كانت هذه التكلفة الباهظة تُجْمِع على مجد بانيها وإن كانت اسميا من أجل مجد الله، وهنا لايمكن الفصل فى هذا الأمر.

إن موقف الإمبراطورية كان مزعزعا للغاية فحول كل حدودها كانت تقف القبائل المحاربة مستعدة للضرب، وفى الواقع وصلوا فى عصر جوستنيان إلى أسوار العاصمة وأرعبوا مواطنيها وكان انفاق المال بهذه الطريقة مثل اللعب على الكمان بينما روما تحترق.

لقد لام بروكوبيوس جوستنيان فى تهمتين معينتين، أولهما الغرض

الواضح فى إبادة سكان بيزنطة برفض إصلاح مجرى الماء الذى كان يعتمد عليه فى إمداد المياه الخاصة بهم، والأخرى أنه أنفق مبالغ هائلة على إقامة مبانى على طول الشاطىء والتى كان معنيا بها صد مياه البسفور. ولقد انتقد هذا الكاتب على أساس أن الإمبراطور كان يحاول إمداد رعيته بالدفاعات ضد اكتساح هذه المياه للبلاد ، ولكن !! ألم يكن من الأفضل أن يحمى القصور التى كان يجب أن يبنيها لنفسه على حافة المياه مثل أسلافه الأغنياء فى عصور الجمهورية؟ لقد أنفق جوستنيان الأموال بحرية على الدفاع عن الإمبراطورية، ولقد ضاع الكثير من هذه الأموال على رشوة جيرانه الخطرين لكى يوقفوا غزواتهم على أرضه ، وكان هذا شكلا من أشكال الدبلوماسية[١٧] التى كانت على المدى الطويل مدمرة ، وأكثر من هذا أنه أغار على الاعتمادات المالية التى ورثها من سلفه الحكيم الإمبراطور أنا ستاسيوس لكى يعزز جيوشه الضخمة فى الميدان.

ولم تكن هذه الاعتمادات قد تم جبايتها من المواطنين كما حدث فى الأيام الغابرة التى تميزت بالشجاعة . ولم يكن رجال العاصمة على استعداد لترك وسائل راحتهم وكسبهم ومسراتهم لمواجهة مخاطر وحرمان الحملات البعيدة كما فعل أباؤهم ، لقد تركوا الدفاع عن أرض الآباء للمرتزقة ، ووجدت غرائزهم القتالية متنفسا للتعبير عن نفسها فى القتل فقط وفى حرب ضروس مواليه بين منافس أزرق وزمرة خضراء.

وكانت جيوش جوستنيان تتكون من مجموعة من الفرق المزركشة تعززها أجناس مختلفة من أنصاف المتحضرين ، شكلها رجل عبقرى، مكونة قوة ضاربة هائلة، رجل يدين له الإمبراطور بكل الانتصارات

تقريبا التى اكتسبت أثناء عصره ، رجل عامله بخسة ونكران للجميل وعدم ثقة ، لم يكن الإمبراطور هو الفاتح العظيم بل بليزاريوس.

لقد دعا الموقف إلى بناء حدود دفاعية حتى لو دعا ذلك إلى انسحابه من بعض الأراضى التى كانت يحكمها أسلافه مثلما حدث مع هادريان[١٨] الحكيم عندما تنازل عن معظم الأراضى التى قهرها تراجان[١٩] سلفه الأقل حكمة منه، ولكن جوستنيان كان مثل كثير من الحكام الذين سبقوه ولحقوه منكبا على توسيع سلطاته ، وقد استخدم جيوشه وقائده الجهبز ليسترد المقاطعات الغربية[٢٠] فى أفريقيا وصقلية وإيطاليا، ولقد نجح بليزاريوس فعلا، ولكن كان عليه أن يخوض حربا ثانية فى إيطاليا التى لم تدم له طويلا، ولم يكد جوستنيان يموت حتى بدأت مملكته فى الانهيار ، ففى عام ٥٦٨م غزا اللومبارديون النصف من إيطاليا، وسقطت بانونيا Panaonia وداكيا Dacia فى أيدى الآفار[٢٢] الذين قدموا عبر طريق طويل من البحر الأسود وبدأوا فى تأسيس إمبراطورية سلافية / بلغارية Slav- Bulgar ثم اتجهوا جنوبا إلى البلقان وفرضوا إتاوة على خلفاء جوستنيان ، وبعد مرور جيل على وفاته اكتسح الفرس المقاطعات الشرقية، ولم يكن هناك من يفعل للإمبراطور موريس[٢٣] ما فعله القائد بليزاريوس لجوستنيان .

لقد حان الوقت الآن أن نذكر شيئا عن بليزاريوس وأنطونينا ، لقد وفد بليزاريوس ، مثل سيده ، من الليريا، ولكنه كان أصغر بكثير فقد ولد سنة ٥٠٥م تقريبا وبعد خدمته كحارس شخصى للإمبراطور وصل إلى سن ٢٥ سنة - عمر يماثل عمر هانيبال ونابليون- أصبح قائداً فى الشرق حيث استطاع أن يهزم الفرس فى دارا فى آسيا الصغرى، وبالرغم

من أنهم كانوا متفوقين فى العدد بدرجة خطيرة، إلا أنه هُزم فى Cal-linincum على نهر الفرات بعد عام ، واستدعى دون أى تجريح لشرفه، ولم يذق مرارة الهزيمة مرة أخرى، وفى العام التالى وفى سنة ٥٣٢م واجهته مهمة مختلفة ، فقد حدثت ثورة النيقا Nika العظيمة والتى اتحد فيها الخضر والزرق ليضعوا جوستنيان فى قمة الخطر، وسالت الدماء بغزارة ، وهنا تقدم الضابط الشاب مظهراً لياقة وسعة حيلة وشجاعة فائقة وقمع ثورة الغوغاء الغاضبة فى الهيبدروم Hip-podrome وكانت هذه خدمة لاينساها مطلقا من هو أفضل من جوستنيان.

وعندما استرد جوستنيان ثقته قرر أن يسترد الولايات المفقودة فى الغرب، وهو غافل عن الخطر الداهم من الشرق والشمال، وفى الأعوام التالية أرسل بليزاريوس على رأس جيشه قوامه خمسة عشر ألفا فقط - خمس هذا العدد كانت قد أرسلته روما الصغرى قبل سبعة قرون ونصف تقريبا لمواجهته فى Cannea بعد ثلاث هزائم على يد هانيبال - رأس هذا الجيش ليتعامل مع Gelimer ومضيفه الوندالى فى أفريقيا.

كان يوليوس قيصر قد وجد أن المشاة أكثر من صف لأى خيالة (فرسان) متاحة فى عصره أما بليزاريوس فقد أدرك أن الرجال المحّملين بالأسلحة الثقيلة ويمتطون صهوة جياد محّملة يمكن أن تستخدم لغرض التدمير كما فسر روبرت جريفر بكل دقة فى قصته التاريخية «الكونت بليزاريوس».

لقد استعملها بليزاريوس فعلا فى التدمير وبعد هزيمة قبائل الوندال مرتين وأسر مليكهم استطاع أن يعود بعد حملة واحدة مزوداً بغنائم

كثيرة تكفى لسد احتياجاته لعدة أيام، وجلب معه أيضا الشمعدان الذهبى ذا الأفراع السبعة والذى نقله تيطس[٢٥] Titus من محراب معبد هيرود فى بيت المقدس عندما تصاعدت النيران فى هذا الصرح العظيم. لقد وضعه والده فسباسيان فى معبد السلام العظيم الخاص به فى روما، وقبل خمسين سنة فقط من مولد بليزاريوس نقله ملك وندالى إلى قرطاجة وأهداه Roman المنتصر إلى جوستنيان الذى أعاده إلى موطنه الأصلى فى بيت المقدس.

لقد كافأه جوستنيان على نجاحه الغامر بأن سمح له بالاحتفال بنصره فى شوارع بيزنطة وبذلك صك ميدالية لتكريمه ، وفى العام التالى أرسله إلى منطقة صراع ثالثة ، باسترداد صقلية Sicily ، ثم عبر إلى إيطاليا، وأخذ نابولى Naples، ثم روما حيث حاصره القوط الشرقيون Os-trogoths ، وبعد هذا بأربع سنوات احتل رافنا Ravenna وأخذ ملك القوط Vittigis أسيراً.

لقد كان هذا إنجازاً رائعا. وكرمه القوط لدرجة أنهم عرضوا عليه أن يعتلى عرش الإمبراطورية . وبما أنه كان مكرسا كل ولائه لإمبرطوريته كما كان طوال حياته فقد تحدى ما سبق بالرفض، وبالرغم من هذا فقد استدعاه جوستنيان إلى العاصمة واستقبله بفتور مدعيا أن الخطر كان يهددهم مرة أخرى على الحدود الفارسية ، وكان الخطر واقعا فعلا لأن الملك خسرو كسرى فارس كان عدواً عنيداً مستعداً فى كل الأحيان أن يصب قواته داخل الأراضى الرومانية ، ولم يكن للإمبراطور الخيار سوى أن يعين مرة أخرى الخادم المخلص الذى كان يغار منه، وبذلك قضى

بليزاريوس السنوات الثلاث التالية فى قيادة الحملات للمرة الثانية ضد أعداء روما فى الشرق.

ولكن نقله من إيطاليا ترك فراغا لم يتباطأ فى ملئه ونحو خط سير القائد الذى لايهزم عبر آلاف الأميال من الحدو الشرقية إلى الغربية ، ولم تكن قواته بأية حال كافية تماما ، ولم يمده جوستيان بالعتاد ليمكنه من دفع القوات، ولذا كانت حصيلة جهد الخمس سنوات قليلة ، واستدعى القائد التعيس وحل محله نارسيس Narses الخصى.

كم كان لبليزاريوس أن يحقق لجوستنيان لو أن هذا الملك الناكر للجميل قصير النظر قد أمده بضربة قاسمة فى ظهره كان يحتاجها ؟؟ كان العبقرى الحربى يمكن مقارنته فى السن بكروميل ومارلبورو عندما أجْبر على قضاء عشر سنوات معتزلا وحتى سنة ٥٥٩م . وتكتل الهون حول جدران بيزنطة نفسها ، وفى هذه الظروف الطارئة اليائسة استدعى ليفكر بمقاييسه لإنقاذ المدينة المهددة، وسادت مرة أخرى شجاعته وسعة حيلته، وتمكن من تفادى هذا الخطر.

وحتى كل هذا لم يلطف من الاستياء والشك اللذين أثيرا حول كل أعماله فى الإمبراطورية، وبعد ثلاث سنوات أتهم اتهاما باطلا بالتآمر فُسجن وحُرِم من ممتلكاته، ولانود أن نقبل هذه الصورة التى نعرفها من قصة لاحقة وهى أنه فقد بصره ومات متسولا، ونعرف كذلك أنه عاد إلى مكان الحظوة ، ولكنه لم يُعين أبداً ، وأنه توفى فى الثالث عشر من مارس سنة ٥٦٥م أى قبل وفاة سيده بثمانية شهور.

ومن البداية وحتى النهاية فقد ظهر رجلا ذا ولاء مقدس وقدرة

مدهشة ومبادىء عالية تتناقض تناقضا واضحا مع الأنانية والفساد الذى كان يحيط به. إن الأخطاء الوحيدة التى تمكننا من إلقاء تبعيتها عليه هى التى عرضت بقسوة على صفحات التاريخ السرى الجاحد؛ denigrating، وخطأه الأساسى هوضعف شخصيته الذى وضعه تحت رحمة سحر زوجته وجرعات حبها، فقد كانت أنطونينا مؤهلة تمام التأهيل لأن تصبح صديقة وحليفة وشريكة فى الدنس للإمبراطورة تيودورا ، لقد كان والدها وجدها سائقى عربة وشركاء مع السحرة، وكانت أمها متسكعة فى الشوارع وقضت هى أيضا أيامها الأولى بنفس الطريقة، وأصبحت أما مرات ومرات ، ويبدو أنها تزوجت مرتين أهدت زوجها الأول بولد يدعى فوتيوس ، والزوج الثانى وهو بليزاريوس ببنت تدعى جوانينا. وكانت أنطونينا تكبر بليزاريوس بعدة سنوات وربما أدرك هو أنها سوف لاتلد له ولداً فتبنى شابا يدعى ثيودوسيوس قبل رحلته إلى ليبيا ، ولم يصلح الزواج من أخلاق زوجته ، ولم يرض مطالب جسدها فلم يمض وقت طويل قبل أن تشب عاطفة مشبوبة بين أنطونينا وولدها المتبنى والذى كانت تضاجعه أمام أعين الخدم. وقد كان سلطانها على زوجها قويا لدرجة أنها أسكتته برفض وقح لجريمتها عندما ضبطهما متلبسين.

وأخيراً نقلت إحدى الخادمات واثنين من الصبية الموكل إليهم العناية بحجرة النوم كل ما كان يحدث إلى ذى القرنين المسكين بعد أن أقسم لهم بضمان كتمان الأمر، ولكن الفاتنة أقنعته أن من أخبروه كاذبين، وأغرته حتى كشفهم لها فقطعت ألسنتهم وقطعتهم إربا، ثم حرضته على قتل قسطنطين الذى كان قائداً لصديقه بليزاريوس ، والذى تجرأ

بالتعبير عن تعاطفه معه، ولم يمكن لأى شيء أن يفرق بين هذه الفاجرة العجوز وعشيقها الشاب والذى اعتزل فى افسوس لفترة معينة، وأعلن نفسه راهبا، ولكن سرعان ما عاد مؤثراً على متبنيه الساخط وابن أنطونينا فوتيوس أن يعقدا اتفاقا بأن يُسْحَل الجاحد على الأرض وهرب الأخير مرة أخرى إلى أفسوس وأخذ له محرابا فى الكاتدرائية، ولكن رئيس الأساقفة نفسه باعة لفوتيوس الذى أرسله تحت الحراسة إلى قيليقية، ولكن الإمبراطورة- التى كانت أنطونينا طوع بنانها (يدفى قفاز) كافأتها على خدماتها لتدمير الباباسيلفريوس وآخرين بأن أحضرته مرة أخرى إلى بيزنطة حيث خبأته لفترة ثم قدمته لصديقتها على أنه أجمل لؤلؤة رأتها على الإطلاق.

وأخيراً لم تترد تيودورا- التى كان من المفروض أنها تركت كل أثامها خلفها عندما تزوجت جوستنيان ، وأنها أصبحت زوجة نموذجية- فى أن تساعد وتحرض زوجة رجل آخر على السلوك الشائن وأن تدمر حياة أخلص خُدام زوجها ولم تتردد صديقتها أدنى تردد فى قبول مساعدة تيودورا فى التخلص من ابنها الغير مرغوب فيه فوتيوس Photius وبموافقتها عذبته الإمبراطورة وألقت به فى السجن الذى هرب منه في المحاولة الثالثة ليقضى بقية حياته فى بيت المقدس تحت حماية قلنصوه الراهب. هكذا كان الأربعة أشخاص حينئذ وكل من ذكر فى هذا الكتاب لم يكن ذو أهمية كبيرة إذا ما قورن بهم.

هل يمكننا أن نثق بالكتاب ونقبله كواقع ؟ وقبل أن نحاول الإجابة على هذا السؤال، دعنا نلخص ما نعرفه عن مؤلفه الذى يمكن أن نقول عنه بالتأكيد بأنه عاصر معظم من كتب عنهم، وأنه كان مواطنا بارزاً

فى بيزنطة يتعارف على العديد من الرجال القادة فى عصره، ورفيقا لبليزاريوس وأنطونينا لأن أنطونينا كانت تلازم زوجها فى كل رحلاته الأولى، وكرجل مثقف وذكى ولماح ، وككاتب قدير فقد تأهل تأهيلا جيداً لتأليف الأعمال التى خلفها للعالم.

وُلد بروكوبيوس فى قيصرية Caesarea المدينة العظيمة التى بناها هيرودHerod على ساحل فلسطين، ولانعرف تاريخ ميلاده بالضبط، ربما يكون سنة ٥٠٠م أو قبل ذلك بقليل ، وبعد ممارسة المحاماة، واحتراف البلاغة فى بيزنطة ، وفى سنة ٥٢٧م أصبح سكرتيراً خاصا ومستشاراً قانونيا لبليزاريوس الذى اصطحبه فى أول ثلاث حملات له فى بلاد الفرس وأفريقيا وايطاليا ، وكذلك كان موضع ثقته فى البعثات الهامة.

وعندما استدعى بليزاريوس إلى بيزنطة بعد محاصرة رافنا ذهب بروكوبيوس معه، ومن المحتمل أن يكون بروكوبيوس سكرتيراً ورفيقًا لبليزاريوس فقد ذهب معه أيضا عندما أرسل مرة أخرى إلى الجبهة الشرقية فى العام التالى، ولكن بعد اثنتى عشر شهراً وفى عام ٥٤٢م رجع إلى العاصمة حيث شهد وباء الطاعون الفظيع الذى غزا المدينة والذى استطاع أن يصفه فى تصوير تفصيلى دقيق، ونحن لانعرف ما إذا كان بروكوبيوس مع القائد أثناء سنوات حملته الثانية فى داخل إيطاليا وحولها والتى وصفها بدقة أقل أم ماذا كان يفعل فى ذلك الوقت بعيداً عن العمل الأدبى وأثناء السنوات المتبقية من حياته لابد أنه قضى هذا الوقت فى عمل كتاب الإمبراطور العظيم لأنه فى سنة ٥٦٠ م مُنح رتبة المصور العظيم ، ومن المحتمل أيضا أن بروكوبيوس هو الذى أصبح رئيسا للمدينة بعد عامين.

أما تاريخ وفاته فليس معروفا بالضبط ولكن يبدو أنه عاش بعد جوستنيان ويصر بعض الدارسين على أنه من المؤكد أنه قد توفى فى أواخر عام ٥٦٥م، وإذا كان هذا صحيحا فلدينا مصادفة غريبة أن بليزاريوس وجوستنيان وبروكوبيوس جميعهم ماتوا فى نفس العام، ومثل هذه المصادفة فريدة من نوعها عبر التاريخ.

إن قلم بروكوبيوس قد ترك لنا ثلاثة أعمال معروفة بـ «التواريخ» و«المبانى» «والتاريخ السرى»، وكان أطول وأول عمل هو الذى وضع له المؤلف عنوان «خطب الحروب» وهو يتألف من ثمانية كتب ، اثنان منهما عن حروب الفرس التى خاضوها فى آسيا الصغرى Meso Potamia ، واثنان عن حروب الوندال التى خاضوها فى أفريقيا ، وثلاثة عن حروب القوط التى حاربوها فى إيطاليا وصقلية وهذه المؤلفات السبعة تتناول الأحداث منفصلة فى المناطق الثلاث المختلفة حتى عام ٥٥٢م عندما تم النشر، وتبعهم مجلداً آخر والذى غطى الأحداث على كل الجبهات إلى تاريخ ٥٥٤م عندما نشر المجلد.

وبالرغم من أن هذه المجلدات كانت تحمل عنوان «الحروب» إلا أنها كانت تحتوى على أكثر بكثير من مجرد قصص عن العمليات الحربية ، فقد أمدتنا بمادة غزيرة عن التاريخ العام عبر السنوات التى عنت بها ، وبهذا فقد أمدتنا بمعلومات قيمة عن الأحداث الهامة فى العاصمة مثل التمرد المروع الذى حدث عام ٥٣٢م والطاعون الفظيع أيضا والذى جاء بعد الحروب بعشر سنوات ، إن هذه المجلدات هى التى أشير إليها فى الملاحظات النهائية أسفل هذه الترجمة والمدونة بكتابه رقم I والخ ...

وثانى أطول عمل هو «المبانى» وهو عبارة عن بيان فى ستة كتب عن الأعمال المعمارية الرئيسية الرائعة والتى أثرى بها جوستنيان العاصمة حتى عام ٥٦٠م وكان هذا العمل مبالغ فيه وشاق ومكتوب بلغة مليئة بالفخر وجعلها هذا الزهو الدائم بالأباطرة عملا لاطعم له . هل يمكن أن يكون قد قصد بهذا حماية موقف الكاتب فى عيون الإمبراطور، وأن هذا سبب الترقية التى أشرنا إليها ؟

والعمل الثالث وهو ثالث فى حجمه وفى تاريخ نشره، ولكن ليس فى تاريخ التأليف ، كان «التاريخ السرى» والمرجعين اللذان فى هذا الكتاب عن الحقيقة التى تقول أن جوستنيان كان حتى هذا الوقف حاكما لمدة ٣٢ عاما قد قاد جيبون أن يعتقد أنه كتب فى سنة ٥٥٩م، ولكن إذا تخيلنا أن حكمه بدأ فى سنة ٥١٨م وليس فى عام ٥٢٧م طالما أنه لم يكن جستين ولكن ابن أخته هو الذى حكم الإمبزاطورية فعلا فإننا سوف نتفق مع Bury والدارسون الآخرون الجدد الذين يعتقدون أن التاريخ كان سنة ٥٥٠م، وهذا يبدو محتملا احتمالا كبيراً بسبب الاحتقار الذى أقصى به بروكوبيوس الملوك الأوائل باعتبارهم عديمى الأهمية ، وليس من الصعب إيجاد احتمالات شبيهة أخرى. عندما أرّخ القديس لوك تاريخ بداية وزارة المعمودية على أنها السنة الخامسة عشرة من حكم تيبريوس قيصر Tiberius Caesor لم يكن غالبا يحسب من وقت اعتلاء هذا الإمبراطور للعرش سنة ١٤م ، ولكن من يوم أن أعطى حق الانضمام للإمبراطورية قبل ذلك بعامين ، ولقد تخيل ايوزيبيوس[٢٨] أن حكم أغسطس بدأ ليس فى سنة ٢٧ ق.م ولا حتى سنة ٣١ ق.م ولكن فى منتصف شهر مارس سنة ٤٤ ق.م ، وتخيل اليعاقبة[٢٩] سنوات حكم

شارلز الثانى بعد ذلك بكثير أى ليس من تاريخ عودته فى سنة ١٦٠٠م ولكن من تاريخ استشهاد والده قبل هذا بأحد عشر عاما.

فى الفقرات الافتتاحية لهذه المقدمة طرحنا تساؤلين... ولكن أرجأنا محاولة الرد عليهما .. لماذا كتب التاريخ السرى ولم ينشر؟

لماذا اختلف اختلافًا غير عادى عن أعمال المؤلف الأخرى لدرجة أن البعض تشككوا فيما إذا كان نفس المؤلف هو الذى كتبه؟

أما كتاب «التواريخ Histories» الذى قُدر له أن يفوز بإعجاب جيبون فهو كتاب دقيق نموذجى مؤرخ بحسب ترتيب الوقائع ويعتبر سجلاً دقيقا لسلسلة الحروب والذى دفع فيه الجزية للعبقرى ذو الشخصية القوية القائد العام ولم تقذف عليه أية طعون ولا على زوجته ولاعلى أصحاب الإمبراطورية.

إن التاريخ السرى الذى يبين أنه امتداداً للكتب السبعة المكونة لكتاب التواريخ ، والذى يبدأ بجمل يبدو أنها مرتبطة بنهاية الكتاب السابع، هذا الكتاب تشهير وحشى ضد الأربعة جميعهم، وضد العديد من موظفى الإمبراطورية ، يتعرض بلا رحمة لتصرفاتهم العامة، وحياتهم الخاصة، وتسلبهم أى حق فى أن يبدى أحد إعجابا بهم أو حتى احترامًا لهم، وهو كتاب سيىء من البداية وحتى النهاية ، وربما يصفه البعض بأنه كتاب «فظيع» ، وكل من يقرأ هذا الكتاب سوف لايتساءل كثيراً لما لم ينشر؟.

فلو أن جزءاً من هذه الاتهامات التى أسلفها هذا الكتاب ضد الإمبراطور والإمبراطورة كانت صادقة لجمع الخيال عن تصوره لما

سيحدث للمؤلف لو أنهم عرفوا أنه كان قد كتب مثل هذه الأشياء عنه، والسؤال هو لماذا كُتب هذا الكتاب أصلا وليس لماذا لم ينشر؟.

هل كان كما اقترح البعض- مجرد تنفيس «إطلاق للبخار المحبوس» لزيادة غليان الحقد والغل فى نفس رجل ساخط لأنه لم ينل الترقية ؟ أنا لاأعتقد هذا، ولكنى أعتقد أنه عندما عرف أن كتاباته الأولى كانت قد تركت الكثير دون ذكر بالرغم من أن هذه الكتابات كانت تاريخًا صادقًا واعيا إلى أقصى حد صورته وقد كتبت هذه الكتب بالطريقة الوحيدة التى تجعل نشرها ممكنا فى وقت ساد فيه الطغيان والرعب، هنا شعر بروكوبيوس أن الجانب الآخر من الحقيقة يجب أن يوضح أيضا ويعبر عنه بقوة وصلابة تصدمنا بتطرفها وسوء مذاقها، وكان فى رأيه أن مثل هذه الجرائم الوحشية يجب أن تذكر عارية وبصراحة قاسية ولايجب أن تتراجع الكلمات ، ولكن حتى لو كان هذا صحيحا فإننا ما زلنا نتعجب لماذا أرهق بروكوبيوس نفسه فى كتابة كتاب لم يكن له أن ينشر؟

إننى مقتنع برأيى أنه كان يأمل فى أن الكتاب سوف ينشر لأنه من المؤكد أن مؤلفا عاقلا وناجحا نشر سبعة كتب تاريخية كانت مقبولة للعامة ولكبار الشخصيات المعنية، والذى كان ينوى أن يضيف الكتاب الثامن ثم يستمر فى كتابة مؤلف طويل عن فن المعمار، وربما عمل آخر عن شئون الكنيسة ، مثل هذا المؤلف لايضيع وقته فى تأليف كتاب سوف لايخدم أى غرض فى حالات عدم نشره، وإذا نشر فإنه سوف يؤكد تدميره لنفسه.

إن الكتاب لم يمكن نشره فوراً ، ولكن ماتت تيودورا ولو أن زوجها الطاغية المكروه تبعها بعد عام أو عامين لكان من الممكن أن ينشر الكتاب ، وربما أحرز نجاحًا مظفراً .

لقد كان جوستنيان يكبر بروكوبيوس بعدة سنوات ، ومن المتوقع منطقيا أن يسبقه بعشرة أو عشرين عاما. هل حدث أن إمبراطوراً حكم قرابة نصف قرن من الزمان ومات على سريره وله من العمر اثنتان وثمانون عاما ؟

ربما يكون السبب هو الإدراك المفاجيء للحقيقة المرة أن جوستنيان رفض أن يموت دون تبرير لبراءته والاتجاه إلى عكس ما كان يفعل ، وكذلك إخفاء غروره فى كتابه «المبانى» وكما أشرنا فإن الاختلاف بين «التاريخ السرى» وبين العملين الآخرين الأكثر طولا يبدو اختلافا مروّعًا عند النظرة الأولى لدرجة أنه أوعز للبعض إنكار أن جميع هذه الأعمال من الممكن أن تكون لنفس المؤلف.

والآن توقفت هذه الشكوك بشكل عام لأن الدراسة المتقنة كشفت أنه ليس هناك تناقضا فعليا بين الأعمال الثلاثة فليس هناك حقيقة مؤكدة فى أحد الأعمال أنكرها فى أى عمل آخر برغم أنه كان يضع أحيانا مظهراً مختلفا لنفس الحقيقة.

فكتاب «التواريخ Histories» ملىء بالمديح المستحق لبليزاريوس ، ولكن ليس هناك إطراء لأى من رؤسائه كما أنه أسقط نهائيا كثير من الإشارات التى تجامل الإمبراطور. وأن العمل الثانى لم يُكَذِّب أى عبارة فى العمل الأول ولايوجد هناك أى تغيير فى الأفكار التى يحويها

الكتاب، فإن اتجاه المؤلف للسياسة والمجتمع والحياة بصفة عامة بقيت بدون تغيير، كما كان التحيز للأرستقراطية ومذهب المحافظين واضحا، وزيادة على ذلك فإن دراسة للغة اليونانية قد كشفت إصراراً غير قابل للخطأ فى اللغويات ومعانى الكلمات والقافية ، فلاأحد يقرأ عدة صفحات دون أن يلاحظ التكرار المستمر لكلمات المؤلف وعباراته المفضلة وتعوده على ترتيب الكلمات بطريقة غريبة إلى حد ما.

ومن المؤكد أنه لم يحدث أن أحداً أخذ على عاتقه مشقة تقليد هذه الأمور لغرض عابر مثلما أخذ بروكوبيوس فى كتاب لم يكن له أن ينشر، ولقد ألقيت شكوكا شبيهة على أمانة التسجيل ، ولكن كما رأينا ليس هناك تناقضا حقيقيا بين العمل الأول والثانى. وقد أعلن بروكوبيوس نفسه أن تفاصيل أحداثه لم تكن براقة ، ولكنها كانت صادقة أساسا ، ولم يكن لدى جيبون أى شكوك فى هذا، وعندما كان ينتقد أسلوب التاريخ السرى لم يتردد فى أن يعيد ذكر عباراته على أنها موضوعية وصادقة، كما أضاف التعليق «حتى أكثر الحقائق خزيا» والتى أشار إلى بعضها بلطف فى تاريخه العام أيدت البراهين الداخلية أو الآثار الأصلية للعصر «والآثار والسجلات وفيرة وبينما عززت هذه الآثار والسجلات عبارات بروكوبيوس ولم تقلب نظامها إلا أنه يمكننا التساؤل حول بياناته على أساس عدم معقوليتها أوزيف برهانها الشخصى وحول هذا الموضوع كتب Gibbon» من الممكن أن يكون جزء من هذه الحكايات صادقا لأنه محتمل الحدوث ، وجزء آخر صادقا لأنه غير محتمل ، ولابد أن بروكوبيوس قد عرف الأولى أما الأخيرة فقد استطاع اختراعها سراً».

ويمكننا أن نضيف أنه طالما أن بروكوبيوس كان يكتب عن أشياء معظمها تقريبا قد حدث فى السنوات الخمس والعشرين الأخيرة فإن الناس أو الأصدقاء الذين أظهر لهم المخطوط سراً قد كشفوا فوراً أى اختراعات فيه. وبالطبع يحتوى الكتاب على المبالغات ، بعض منها يصدم القارىء الحديث لغبائها مثل اعتقاد المؤلف فى الشعوذة «أم أن هذا كان دواءً مقبولا»؟، واعتقاده كذلك فى عشاق العفاريت والأباطرة الشياطين، وكل هذا يبدو أكثر من سخف ، ولكن يجب أن نتذكر أن مثل هذه المعتقدات كانت سائدة بشكل عام فى هذه العصور، وكذلك كان أيضا الاعتقاد بأن شرور الملك تثير الله وربما تحدث الفيضانات والزلازل ومصائب أخرى ، ومثل هذه الأشياء نسميها فى أيامنا هذه «أعمال الله» ، وبعد ألف عام كتب John Fox عن Mary Tudor حول نفس الموضوع، ومرة أخرى فضح أمر الكتاب بغلظة على أنه غير عادل.

وبالطبع فإنه كذلك- إذا اعتبرناه فى حد ذاته- ولكن إذا فعلنا هذا فإننا ظالمون أيضا لأن الكتاب يجب أن يؤخذ كجزء من عمل أكبر، عمل وضع فيه بروكوبيوس البادئة والسابقة(٣٠) فى مجلدات مختلفة كما يضعهم أى مؤلف آخر فى فصول مختلفة أو فقرات مختلفة ، إننا نقرأ أولا عما حققه جوستنيان وقائده فى الميدان ثم يخبرنا أنه على الرغم من أن هذان الرجلان قاما بأعمال عظيمة، فإن أحدهما سبب الكثير من الضرر، وكانت له دوافع شريرة ، أما الآخر فقد كانت تنقصه الشجاعة الخلقية، فكلاهما كان تحت أمر زوجته .

وبالنسبة لبليزاريوس فقد كانت هذه غالبا هى التهمة الوحيدة ضده

فى «التاريخ السرى» وفى الحقيقة وتكريما لهذا الرجل العظيم- فإن بروكوبيوس اقترح أن أنطونينا ما كانت لتهزمه إطلاقا إذا لم تستعمل الفنون السحرية لتؤثر عليه وتنال غرضها. ومهما كانت نقائص هذا الكتاب فلايمكن إنكار أن الكتاب يمثل قراءة شيقة للذين يريدون أن يعرفوا كيف كان يعيش الناس فى عصور وأماكن أخرى ومستعدون للقراءة عن أمور كانت حقيرة وتدعوا للاشمئزاز .

إننا لانجد فى هذا الكتاب تاريخا سياسيا وحربيا وروايات عن فضائح وتلميحات وتشهير فحسب ، بل نجد فيه أيضا وصفا حيا للحياة فى هذا العصر البعيد فقد كانت بيزنطة مليئة بالجمال والروعة، مليئة كذلك بالفساد الأخلاقى والدينى وتلقى ضوءاً على الحالة المحزنة للكنيسة والشخصيات الحقيرة لبعض الأساقفة، والوسائل الإجرامية المُستغلة لزيادة أموال الكنيسة ، ونقرأ أيضا عن مدينة كان الجنس فيها واضحا، والزنا والدعارة متفشيان ، والعفاف لايعرف له أحد طريقا، وكان ناموس الله والمثل الأعلى للمسيح منسيا، وكانت الوثنية مبدأ....

ولايضرنا أن نقرأ عن هذه الأمور ، ولكن الكتب الضارة الوحيدة هى التى تجعل الخطأ يبدو شيقا أو يبرز الخطيئة على أنها شىء آخر غير هذا الأمر القذر الذى تعنيه. إن بروكوبيوس كان بلاشك فى جانب الحق، وكانت هذه الأمور تثير اشمئزازه كما تثير اشمئزازنا، وبغض النظر عن اللامبالاة المنتشرة للدين والأخلاق فإن القارىء سوف يجد فى بروكوبيوس أشياء كثيرة ليست كلها مرفوضة بل ربما تذكره بما يحدث اليوم، فإنه سيقرأ عن خدمات اجتماعية تشمل أطباء تعينهم الدولة ،

ومدرسون ووسائل ترفيه مدعمة ، وسيقرأ عن خدمات بريدية منظمة باتقان ، وعن المراقبة وما يقابل المراقبة عن النسب والضرائب ومكاتب الجمارك، جمارك الاستيراد والواردات الممنوعة، سيقرأ عن قصور فى إنارة الشوارع ، وتوصيلات المياه الغير كافية، عن الاحتكارات وتثبيت الأسعار والسمسرة والمبيعات المخفضة ، واحتكار البضائع، عن ارتفاع تكاليف المعيشة وهبوط قيمة العملة، وعن أرغفة صغيرة الحجم ودقيق مغشوش، عن دولة الحدود، وعن عاطفة مجنونة للرياضة ، والهوس والعصبية العدوانية لهوائها.

بقى فقط أن نقول شيئا عن الخواص الأدبية للكتاب وتاريخه منذ أن ذكره Suidas أول مرة ويعتقد أن الكتاب قد أخذ شكل كتاب

The Pompus's History of Philip of Macedon.

ويدين بروكوبيوس أيضا بالقدر الكبير لهيرودوت Herodotus و Thucydides وللأخير بصفة خاصة والذى وضع النمط لكتاب «التواريخ» وقد أثر أيضا على الأقل فى كتابه لغة «التاريخ السرى» الذى يختلف تماما عن الأول. ويدين بالقليل للإنجيل أو لمؤلفين لاتينيين، ولكنه قدّر عظماء الكُتاب اللاتين الذين عاشوا الفترة الكلاسيكية الأولى مثل هوميروس وأخيّوس وبصفة خاصة أريستوفانيس والذين أشار إلى أربعة من مؤلفاتهم الكوميدية حوالى ثمان مرات فى هذا الكتاب القصير.

إن لغته اليونانية ممتازة لاتختلف عن Attic بالرغم من أن الكلمات قد طرأ عليها تغيراً بالطبع، ولكنها واضحة على وجه العموم، على أن

هناك فقرات قليلة صعبة نتيجة تدخل المترجمون فيها بطرق مختلفة. وأن سرده للأحداث ينساب بسهولة، ووصفه واضح ، وجمله ليست طويلة، كما أن الخطب التى وضعها على لسان شخصياته كما كان يفعل المؤرخون القدماء تبدو هذه الخطب طبيعية أكثر مما يحدث أحيانا فى أعمال أخرى.

لقد ذكرت بعض الكلمات المفضلة والتى تميز أسلوب بروكوبيوس ويتكرر حوالى عشرين كلمة منها باستمرار فى الكتاب وهى ليست كلمات مشهورة فى الترجمة بالرغم من أنها لاتظهر دائما بنفس الشكل طبقا للتذوق الفنى فى اللغة الإنجليزية والتى تتطلب كلمات متنوعة أكثر. ولكن قراء الترجمة الحالية ربما يلاحظون استعمال الكلمات الآتية كثيراً : never، دائما always، كل all، حدث أنه cithappened that تمكن من manageto ، لاداعي اطلاقا for noreasonatall النصيب الأكبر for the most Part . ويمكن للقراء أن يلاحظوا أيضا أن كلمة "bishop" وتعنى «أسقف» والتى استخدمت بطريقة منتظمة لمدة خمسة قرون تقريبا كان يحل محلها دائما كلمة "archpriest" والتى تعنى «قمص» وهى كلمة ما تزال تستخدم فى الكنيسة الأرثوذكسية ، ولست بحاجة أن أزعج القارىء بوصف تفصيلى لهذا المخطوط فهى تفاصيل قليلة فى عددها وكلها قديمة واثنان منها فقط كتبت فى القرن الرابع عشر والباقى فى القرن الخامس عشر والسادس عشر وحتى السابع عشر والثامن عشر، وهى تحتوى على العديد من الأخطاء بعضها يحدث فى كل مخطوط على حدة وهى محيرة فمثلا وضعت كلمة Romans وهى تعنى الرومان على أنها كلمة Persian التى تعنى الفرس والتى صححها Suidas .

وأول نسخة مطبوعة من «التاريخ السرى» كانت لأليمانوس Alem-anus ونشرت فى ليون سنة ١٦٢٣م مع حذف جزء واحد والذى أعتقد أنه وقع جداً لدرجة أن قراؤه لايمكنهم احتماله. وقد استمتع Gibbon بهذا وعلق بلطف على تيودورا بأن ألاعيبها يجب أن يوضع فوقها غلالة من الإظلام بلغة مهذبة. وشرع فى الاستشهاد وبفقرة من اللغة الإغريقية الأصلية مزينة بتعليق باللغة اللاتينية مضيفا أن هذا الحذف لم يُعدل فى نسخة Paris والتى نشرها Maltretus سنة ١٦٦٣م أما النسخ الحديثة فتحتوى على واحدة لـ Comparéru فى روما سنة ١٨٩٨م وأخرى لـ Haury فى ليبزج سنة ١٩١٣م، وآمن هذه النسخ هو الآن النسخة الثابتة - وللقراء الإنجليز يوجد نسخة Lveb التى تستحق الإعجاب فلها ترجمة وملاحظات كتبها Dr. H.B. Dewing والتى صدرت أول مرة سنة ١٩٣٥م ، وأول ترجمة إنجليزية ظهرت كانت لـ Haleroft سنة ١٦٢٣م وآخرهم ترجمة أمريكية نقلها Atwater والتى وصلت شواطئنا سنة ١٩٦٣م.

ويجب أن أضيف بعض الكلمات عن هذه الترجمة الحالية والتى حاولت أن أجعلها دقيقة وسهلة القراءة. وفى الجزء الأكبر منها تتبع نص Haury ولكننى استبعدت الإصلاحات كلما كان هذا ممكنا حتى يمكن أن يكون المخطوط MSS صحيحا ، وعلى صفحة واحدة رفضت مرتين الاعتراف بكلمة لا not التى كان مصلحوا النص مغرمون بها ، ولقد كنت أيضا أميل إلى اتباع طريقة Gibbon و Atwater فى تحويل حفيد تيودورا إلى ابن أخت بدون الرجوع إلى المخطوط الأصلى، أما الكلمات اللاتينية التى كتبها بروكوبيوس بأحرف لغة أخرى فقد أبقيتها

دون ترجمة ولكنها تتميز بكتابتها بحروف مائلة وكلمة Practor))، Toga[٣١] فقد عالجتهما على أنهما كلمات انجليزية وكلمة واحدة هى التى ألغيتها تماما وهى كلمة Centenatium والتى تعنى وحدة نقود كانت تستعمل إذا كانت الكميات المعدودة كبيرة، وبما أنها ليست مألوفة للغالبية العظمى من القراء فى الأحد عشر فقرة التى ذكرت فيها فى هذا الكتاب فقد غيرت الكلمة المعنية إلى مصطلح حديث ليس مبنيا على القوة الشرائية ولكن على قيمة الذهب لأن Cenctarium كانت بلاشك كمية من الذهب كما بين بروكوبيوس عدة مرات ، وكل الشواهد تشير إلى أنها كانت تزن ١٠٠ رطل كل منها يزن ١٢ أوقية وبما قيمته ذهب يساوى أكثر من ١٢ جنيه وهذا يعطى قيمة أعلى من ١٥٠٠٠ جنيه بعملة اليوم وعلى هذا الأساس فقد حسبت حساباتى والأرقام الناتجة يجب أن تؤخذ طبعا كأرقام تقريبية فقط وهى على الأقل لها مدلول ، وفى النهاية فقد رفضت بشدة ترجمة كلمة barbario على أنها barbarian وأنا واثق أننى لم استخدم كلمة أو تعبيراً أخر رغبة فى أى تغيير .

Morwich, April, 1965.

الغرض من هذا الكتاب

فى تسجيلى لكل شىء مارسه الشعب الرومانى فى حروبه المتتابعة وحتى وقت كتابته اتبعت تخطيطهم وهو ترتيب كل الأحداث التى وصفتها طبقا لوقت حدوثها الحقيقى ومكانها قدر المستطاع ، ولكن من الآن فصاعداً سوف لا ألتزم بهذا الأسلوب ففى هذا المجلد سوف أدون كل شىء بمفرده أينما حدث فى الإمبراطورية الرومانية، والسبب بسيط، فطالما أن المسئولين عما كان يحدث ما زالوا أحياء ، فلايمكننا أن نقص القصة بالطريقة التى تستوجبها لأنه من المستحيل أن نتحاشى ملاحظات العديد من الجواسيس ، وكذلك إذا قبض علىّ هاربا من الموت فى أبشع أشكاله حتى لو كنت مع أقرب المقربين إلى فإننى سوف لا أشعر بالأمان.

ولذلك عندما خاطرت بسرد الأحداث العديدة فى مجلدى الأول لم أجرؤ على كشف أسباب ما كان يحدث ، أما فى هذا الجزء أشعر أن من واجبى كشف الأحداث التى مرت دون تعقيب حتى الآن، ومبررات ذكر الأحداث التى وصفت فعلاً، وبما أننى سأخوض مهمة صعبة للغاية لأنها تختص بجوستنيان وتيودورا والحياة التى عاشاها فإن أسنانى تصطك وأجد نفسى متراجعا عن هذه المهمة قدر ما أستطيع لأننى أتخيل أن ما أوشك أن أكتبه الآن ربما لايبدو سهل التصديق أو مقنعا لأجيال المستقبل، وعلى المدى البعيد فالقصة ستبدو وكأنها تنتمى إلى الماضى البعيد وأنى متخوف من نظرتهم لى على أننى قصاص لحكايات خيالية، أو ربما أوضع فى قائمة الشعراء المأساويين، ومع هذا فهناك شىء واحد يعطينى الثقة فى تحمل هذه المهمة الصعبة دون إحجام.

هذا وإن تقريرى سوف لايفتقد إلى شهادة لتأييد صدقه لأن من عاصرونى هم شهود ويعرفون تماما تلك الأحداث التى أصفها ، وسوف ينقلون إلى الأجيال التالية اعتقاداً راسخا بأن هذه الأحداث قد سجلت بأمانة . وهناك شيء آخر أوقفنى لعدة أسابيع كلما كنت أتشوق للكتابة فى هذا المجلد، هذا الشيء هو ميلى لفكرة أن سعادة أحفادنا سوف تتعرض للخطر عندما أكشف عن هذه الأحداث، لأنه من الضرورى جداً أن نخفى أعمالا كهذه ذات صبغة سوداء عن الأجيال القادمة وعن أن تصل إلى آذان الملوك فتكون مثلا يمكن تقليده لأن معظم رجال السلطة بلاستثناء ينزلقون إلى تقليد مساوىء أسلافهم، ويجدون فى هذا سهولة وراحة، وهذا يعود إلى جهلهم الواضح، ولكنى تشجعت فيما بعد أن أكتب قصة هذه الأحداث بعد أن اعتقدت أنه سيكون واضحا أمام ملوك المستقبل أن عقوبة أفعالهم السيئة مؤكدة فى القضاء عليهم كما حدث للأشخاص المذكورين فى هذا الكتاب ، ثم إن سلوكهم وشخصيتهم سوف تسجل بدورها لكل العصور، وهذا ربما يجعلهم أقل استعداداً لتجاوز هذه الأفعال وإلا فكيف عرفنا عن حياة سميراميس الخليعة، أو جنون Sardanapalus ونبرو التى عرفتها الأجيال اللاحقة.

كيف كان لنا أن نعرف إذا لم يترك المؤرخون المعاصرون سجلا لهذه الأعمال ، وبغض النظر عن هذا ؟ إن أسماء حكام المستقبل معاملة بعض الناس ، فإنهم سيجدون هذه السجلات نافعة لهم، وسيكون فيها راحة لمعاناتهم، لأنهم سيعلمون أنهم ليسوا وحدهم الذين وقعت عليهم هذه الضربات ، وهذا هو تبريرى لأول تسجيل لسلوك بليزاريوس المحتقر ثم كشف سلوك جوستنيان وتيودورا المساوى فى الحقارة .

الهوامش

١- هو المؤرخ الإنجليزى الشهير إدوارد جيبون قام فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر بدراسة تاريخ الإمبراطورية الرومانية منذ ميلادها وحتى سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ فى كتابه الضخم «اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية» The Decline and Fall of the Roman Empire

ولايعترف جيبون فى هذا الكتاب الذى يقع فى ثلاث مجلدات بما يسمى بالإمبراطورية البيزنطية ولكنها عنده هى الجزء الشرقى من الإمبراطورية الرومانية.

٢- يقع حكم دقلديانوس للإمبراطورية الرومانية فى الفترة من ٢٨٤-٣٠٦م، وقام بالعديد من الاصلاحات السياسية والاقتصادية والإدارية التى أنقذت الإمبراطورية من التدهور الذى حل بها منذ القرن الثانى الميلادى، ثم تنازل على العرش سنة ٣٠٦م.

٣- من بين الإصلاحات الإدارية التى قام بها دقلديانوس تقسيم الإمبراطورية إلى أربعة أقسام إدارية يحكم اثنين منها بمرتبة أوغسطس، والقسمين الآخرين بمرتبة قيصر، وكان الإمبراطور أحد الأوغسطين، ويرجع إليه كل الحكام الآخرين فى كل شىء ، وذلك حتى يتم إحكام قبضته على هذه الأقسام الإدارية ، كما قام بنقل العاصمة من روما إلى نيقوميديا ليكون قريبا من الحدود الآسيوية الرومانية الفارسية حيث العدو اللدود لروما المتمثل فى فارس.

٤- «الشملة » لباس يشتمل به الرومان.

٥- أصبح قسطنطين الحاكم الوحيد للإمبراطورية بعد انتصاره على آخر أعدائه سنة ٣٢٤م.

٦- حدث الاعتراف بالديانة المسيحية فى المرسوم المشترك الذى أصدره الإمبراطور قسطنطين وشريكه ليكينيوس سنة ٣١٣م والمعروف «بمرسوم ميلانو» واعترفا فيه بالديانة المسيحية ديانة شرعية مرخصة- وقد دارت الآراء حول اعتناق قسطنطين للديانة المسيحية وهل اعتنقها لأهداف سياسية تخدمه فى إحكام قبضته على الإمبراطورية والحفاظ على العرش الإمبراطورى؟ أم من اقتناع دينى؟.

٧- تم بناء قسطنطين للعاصمة الجديدة سنة ٣٣٠م، مكان المستعمرة الإغريقية القديمة بيزنطة التى تقع على الجانب الشرقى الأسيوى للبسفور، والتى تقول عنها الأسطورة أن جماعة من الصيادين الإغريق قد استخاروا الإله أبولو فى اختيار مكان حصين لإقامة مدينتهم عليه فدلهم على المستعمرة المواجهة لمدينة العميان أى الذين عموا عن اختيار هذا المكان على الجانب الأسيوى للبسفور يقيمون عليه مستعمرتهم، وكان زعيم هؤلاء الصيادين يدعى «بيزاس» ولذلك سميت بيزنطة نسبة إليه، وسماها قسطنطين «روما الجديدة» وأرادها رومانية الطابع فنقل إليها رعاع روما وكثير من التماثيل التى كانت موجودة فى روما حتى لاتضيع من مخيلته صورة روما العريقة ، ولكن المدينة فى النهاية أبت إلا أن تحمل اسم مؤسسها فأطلق عليها أهلها القسطنطينية ، كما أبت إلا أن تكون يونانية اللغة أرثوذكسية المذهب متناقضة تماما مع روما لاتينية اللغة كاثوليكية المذهب.

٨- سقطت روما سنة ٤٧٦م على يد أودواكر الجرمانى .

٩- سقطت القسطنطينية سنة ١٤٥٣م فى يد محمد الثانى العثمانى المعروف بمحمد الفاتح، وانتهت تماما الإمبراطورية البيزنطية ودخلت المنطقة فى عصر جديد.

١٠- حكم الإمبراطور زينون فى الفترة من ٤٧٤-٤٩١م.

١١- حكم الإمبراطور أنسطاسيوس فى الفترة من ٤٩١-٥١٨م.

١٢- حكم الإمبراطور جستين فى الفترة من ٥١٨-٥٢٧م.

١٣- ظهر فى الإمبراطورية الرومانية ما يعرف بأحزاب الملعب وهم الزرق والخضر والأحمر والأبيض ثم امتزجت هذه الألوان فى لونين وهما الأزرق والأخضر، وارتبطوا فى البداية بألعاب الهبدروم ، ثم دخلوا بعد ذلك فى النواحى الاجتماعية والسياسية وكذلك الدينية ، وأحدثوا الكثير من الشغب والفوضى ليس فى العاصمة فحسب، ولكن فى جميع نواحى الإمبراطورية، وأصبح الزرق يمثلون بعد ذلك الملكانيين أهل العاصمة والطبقات الأرستقراطية فى الأقاليم، والخضر يمثلون المونوفيزيتين والطبقات الزراعية فى الأقاليم. وعلى أية حال فقد اتفق لأول مرة فى تاريخ هذه الأحزاب سنة ٥٣٢م على الاتحاد والقيام بثورة ضد الإمبراطور واتفقوا على أن تكون كلمة السر Nika أى «النصر» ، وقامت الثورة وطالب الثوار بعزل كل من محافظ القسطنطينية ووزير المالية نتيجة فرض الكثير من الضرائب على الأهالى والتعسف فى جمع هذه الضرائب والقبض على بعض من أفراد هذه الأحزاب، ولما لم يستجب الإمبراطور لمطالبهم طالبوا بعزله وقاموا بتعيين بدلا منه من أقارب الإمبراطور الأسبق أنسطاسيوس الذى سلب منه جستين العرش الإمبراطورى، وعندما رفض هذا الرجل أن يكون امبراطوراً قاموا بإحراق منزله عليه ، وشاعت الثورة ، ولم تستطع الشرطة فى العاصمة إيقاف نيران هذه الثورة التى امتدت إلى كل مكان وأخذت أمامها الأخضر واليابس، وعندئذ شعر الإمبراطور بالفشل وقرر الهروب بنفسه والفرار خارج العاصمة ، ولكن زوجته تيودورا وقفت موقفا شجاعا محفزة للإمبراطور على الوقوف بصمود فى وجه هؤلاء الثوار قائلة له: «إذا كنت تريد النجاة بنفسك فها هو البحر أمامك، وها هى المراكب، وها هى الأموال فأهرب، أما أنا فأفضل الموت، فإن خير الأكفان العباءة الإمبراطورية» ، فقرر الإمبراطور البقاء ومواجهة الموقف، وبدأت تيودورا فى استخدام كثير من الوسائل للقضاء على هذه الثورة مثل المال والوعود بالوظائف المرموقة وسياسة فرق

تسدو الايقاع بين الزعماء والأحزاب، وبالفعل أغرتهم بالمال ووعدتهم بالوظائف وأوقعت بين هؤلاء الزعماء مما جعلها تسيطر على عقول وقلوب هؤلاء الزعماء الذين انتهى الأمر بالقبض عليهم جميعا وقتل الكثير منهم وسجن الآخرين، وفى النهاية تم قمع هذه الثورة، ولم تقم لهذه الأحزاب قائمة تذكر بعد ذلك . واستقر الإمبراطور وبدأ فى توجيه كل اهتماماته لإصلاح أحوال الإمبراطورية داخليا وخارجيا ، كما كان هذا الموقف للإمبراطورة حاسما واثباتا لعقليتها الفاذة فى إدارة شئون الإمبراطورية مع زوجها فى كل صغيرة وكبيرة، فقد أصبح طوع بنانها ولم يقم بالتصرف فى أى أمر إلا بعد أخذ رأيها واستشارتها.

١٤- رأى الإمبراطور جوستنيان أن القانون هو الجدير بإحكام قبضته على جميع أجزاء الإمبراطورية وادارتها داخليا وخارجيا ، ولذلك اهتم بالقانون فأمر المشرعين ورجال القانون بتجميع القوانين والمراسيم الإمبراطورية التى صدرت منذ نشأة الإمبراطورية الرومانية وحتى القوانين والأوامر التى أصدرها هو بنفسه وتنقيحها وتصنيفها حسب أهدافها، كما اهتم بإنشاء المدارس التى يدرس فيها القانون، وصدرت هذه القوانين فى خمسين مجلدا وينيف متمثلة فى: المقننة Cide وهى عبارة عن المراسيم الإمبراطورية التى صدرت منذ عهد الإمبراطور هادريان حتى عهد الإمبراطور جوستنيان نفسه، والجامع أو الديجستا Dogest وهى عبارة عن الأحكام والتشريعات التى صنفها الفقهاء الرومان ، ومبادىء القانون وهى مختصر ليعتمد عليه طلاب القانون، والمتجددات أو النوفلات Novellaeleges، Insitutes ومجموعة القانون المدنى Corpus Juris Civilis، وكتبت كل هذه المجموعات القانونية باللغة اللاتينية فيما عدا المتجددات فقد كتبت باللغة اليونانية.

١٥- بمجرد الاعتراف بالديانة المسيحية ديانة شرعية وإقرار السلام بين المسيحيين وتوقف الاضطهادات بدأت نيران الحرب تشتعل داخل الكنائس

عن طريق احتدام الجدال بين رجال الدين فى المسائل العقائدية التى بدأت بمشكلة خلق السيد المسيح بين أريوس وأثناسيوس ، وهل هو مولود أم مخلوق؟ وعقد لذلك أول مجموع مسكونى فى العالم المسيحى ترأسه الإمبراطور قسطنطين نفسه رغم عدم تعمقه أوفهمه فى المسائل الدينية فى نيقية سنة ٣٢٥م، وانتهى الأمر بإقرار مبدأ أن السيد المسيح مولود وليس مخلوق ، وهو من نفس جوهر الأب ، ولم ينته الأمر عند هذا الأمر، فظل الجدال محتدما إلى أن اشتعلت النيران بين كنيسة الإسكندرية التى يرى رجالها أن للمسيح طبيعة واحدة وهى الطبيعة الإلهية رداً على القول الذى قال به «نسطور» بطريرك القسطنطينية والذى يقول فيه بأن للسيد المسيح طبيعتين إلهية وبشرية، كما رفض القول على العذراء بأنها أم الإله ولكنها أم المسيح ، وعقد لذلك أكثر من مجمع فى أفسوس سنة ٤٣١م، وفى أفسوس الثانى سنة ٤٤٩م، ثم فى خلقدونية الذى أقر سنة ٤٥١م بأن للسيد المسيح طبيعتين ، وانفصلت بذلك كنيسة الإسكندرية عن كنيسة القسطنطينية نهائيا وأصبحت الأرثوذكسية منذ ذلك الوقت تنقسم إلى فريقين: أصحاب الطبيعة الواحدة أو الموتوفيزتيين وعرفوا أيضا باليعاقبة، وأصحاب الطبيعتين أو الملكانيين.

- اهتم الإمبراطور جوستنيان بالمبانى المعمارية الفخمة وعلى رأس هذه المبانى كنيسة «آيا صوفيا » وكنيسة «القديس فيتالى» وغير ذلك ، ولكثرة هذه المبانى وفخامتها أفرد مؤرخنا بروكوبيوس كتابا من كتبه للإشادة بهذه المبانى وسماه «المنشآت المعمارية أو المبانى» .

- أهم ما كان يميز السياسة البيزنطية هى الدبلوماسية مع جيران الإمبراطورية فى الشرق والشمال والغرب والجنوب ومن وسائل هذه السياسة الدبلوماسية المال والمعاهدات ولم تلجأ الإمبراطورية البيزنطية إلى وسيلة الحرب مع جيرانها الأعداء اللدودين سواء الفرس أو القبائل السلافية أو الجرمان أو

المسلمين إلا إذا فشلت وسائل المال والصلح ، ونجحت الدبلوماسية البيزنطية كثيراً فى الحفاظ على أراضى وأمن الإمبراطورية منذ سنة ٣٣٠م وحتى سنة ١٤٥٣م ، وعندما فشلت هذه الدبلوماسية كانت النتيجة سقوط أراضى الإمبراطورية فى يد أعدائها مثلما حدث سنة ١٢٠٤ على يد اللاتين فى الحملة الصليبية الرابعة، وسنة ١٤٥٣ على يد الأتراك العثمانيين.

١٨- حكم الإمبراطور هادريان فى الفترة فى أواخر القرن الأول الميلادى.

١٩- حكم الإمبراطور تراجان فى الفترة من ٩٨-١١٧م .

٢٠- بمجرد أن اعتلى الإمبراطور جوستنيان عرش الإمبراطورية فكر فى استرداد الأراضى التى استولى عليها الجرمان فى الغرب الأوربى وشمال أفريقيا وتوحيد الإمبراطورية مرة ثانية تحت سلطة إمبراطور واحد كما كانت على عهد الأباطرة الرومان، وذلك لأنه كان يحمل فى عقله فكرة أنه إمبراطور رومانى وليس بيزنطى فحسب، وعلى ذلك جهز القوات الإمبراطورية بقيادة قائديه العظام بليزاريوس ونارسيس ، وبعد أن استقرت الأمور فى الداخل بعد قمع ثورة نيقا، خرجت الجيوش سنة ٥٣٣ وحتى سنة ٥٦٣م وأثرت كثيرا على الاقتصاد الإيطالى وكذلك البيزنطى، وتم استرداد شمال أفريقيا من الوندال وكذلك أجزاء كثيرة من إيطاليا ، ولكن لم يمض ثلاث سنوات بعد وفاة جوستنيان حتى ضاعت هذه الأراضى من حوزة الإمبراطورية البيزنطية ، وتعرف هذه الحروب بالحرب القوطية.

٢١- اللمبارديون جماعة من القبائل الجرمانية ظهروا فى القرن الأول الميلادى عند وادى نهر الأودر والجزء الأدنى من نهر الألب، وبدأوا فى التحرك ناحية الجنوب حتى ظهروا فى بانونيا فى بداية القرن السادس وانتصروا على القبائل الجرمانية هناك وخاصة الجيبداى، وتحالفوا مع الآفار واستولوا على الأراضى الإيطالية التى استردها جوستنيان واستقروا فيها منذ سنة ٥٦٧م وظلوا هناك حتى عصر شارلمان.

٢٢- الآفار قبيلة من القبائل السلافية الصقلبية الذين عاشوا فى شمال الإمبراطورية البيزنطية وسببوا كثيرا من المشاكل للأباطرة البيزنطيين وأقضوا مضاجعهم ودخلوا معهم فى صراعات وحروب كثيرة حتى تم تقلصهم ، وإن لم يقضوا عليهم تماما.

٢٣- حكم الإمبراطور موريس الإمبراطورية البيزنطية فى الفترة من ٥٨٢-٦٠٢م، ويعتبر من الأباطرة الذين جاهدوا فى إصلاح أحوال الإمبراطورية البيزنطية، ودخل فى صلح تام مع الفرس ، ومات مقتولا على يد أحد رجاله . ويقول عنه بعض المؤرخين «أن موريس لو كان قام بالمبانى التى قام بها جوستنيان أو الحرب الاستردادية ضد الجرمان لكان من الأجدر أن يذكر اسمه بدلا من جوستنيان».

٢٤- الهيبدروم هو مضمار السباق أو الملعب أو السيرك الذى أنشأه الأباطرة ليقوم الرياضيين بممارسة ألعابهم فيه، وهناك ظهرت ، فرق الملعب أو الأحزاب الزرق والخضر والحمر والبيض الذين كانوا يمارسون حرياتهم فى هذا المضمار واندمجوا ليصبحوا بعد ذلك الزرق والخضر، ووجد هذا المضمار فى القسطنطينية، وبصورة مصغرة فى الأقاليم البيزنطية.

٢٥- تيطس هو الحاكم الرومانى لفلسطين فى عصر السيد المسيح عليه السلام فى فترة حكم الإمبراطور .

٢٦- أنظر هامش ٢٠ .

٢٧- الهون قبائل همجية تركية الأصل، وهم من القبائل المغولية، أتوا من بلاد الصين فى الشرق الأقصى تحت وطأة الظروف الاقتصادية والاجتماعية وعبروا الجبال والبحر الأسود وساروا بمحاذاة الأراضى البيزنطية وقهروا القوط الشرقيين عند نهر الراين وكونوا إمبراطوريتهم هناك بزعامة زعيمهم «أتيلا» وظلوا هناك يرهبون جيرانهم حتى تم التحالف بين البيزنطيين والفرنجة وقهروهم فى معركة شالون سنة ٤٥١م.

٢٨- ولد ايوزبيوس فى فلسطين، وتلقى تعليمه على يد بامفيلوس، وهرب إلى مصر أثناء فترة الاضطهاد العظيم فى عصر دقلديانوس ، وبعد اعتراف قسطنطين بالمسيحية أختير سنة ٣١٣م أسقفا لقيسارية فلسطين، وكان من المقربين من الإمبراطور قسطنطين وصديقا له، وله كثير من الأعمال التاريخية على رأسها «تاريخ الكنيسة» و«حياة قسطنطين» ومن مؤلفاته فى المسائل اللاهوتية والعقيدة: Preparatio ، Contra Hieroclem Evangelica ، De Theologia Ecclesiastica وكان ايوزبيوس فى بداية الأمر أريوسيا، ثم انضم إلى أتباع أثناسيوس بعد ذلك.

٢٩- اليعاقبة ينسبون إلى يعقوب البرادعى زعيم طائفة المتافزة أى أصحاب الطبيعة الواحدة فى بلاد الشام.

٣٠- البادئة والسابقة : الحروف التى تسبق الكلمات كنوع من التبويب.

٣١- الشملة التى كان يشتمل بها الرومان .

الفصل الأول

بليزاريوس وأنطونينا

لقد تزوج بليزاريوس بامرأة ذكرت عنها شيئا فى الكتاب السابق، إن والدها وجدها كانا سائقى عربة يعرضان مهارتيهما فى بيزنطة وسالونيكا ، وكانت أمها فنانة ذات فضيلة هشة، وكانت أنطونينا نفسها قد عاشت نفس الحياة الخلقية فى بداية عمرها وقد قذفت بعيدا كل قيود الأخلاقيات ، وكانت بصفة دائمة فى صحبة أصدقاء والدها محترفى السحر ومنهم تعلمت الفنون التى خدمت مهنتها ، وفيما بعد تزوجت بليزاريوس بكل مظاهر الاحتفال - كانت قبل ذلك قد ولدت أكثر من طفل.

وكان فى نيتها ألا تكون مخلصة منذ البداية ولكنها كانت حذرة جداً أن تخفى هذا الأمر- ليس لأن سلوكها جعلها تشعر بوخز الضمير أو لأنها كانت تخاف زوجها، فتلك المرأة لم تشعر بأدنى خزى من أفعالها على الإطلاق ، وبفضل ممارستها للسحر بصفة منتظمة فقد استطاعت أن تلوى زوجها حول أصبعها الأصغر- ولكنها كانت تخشى انتقام الإمبراطورة لأن تيودورا كانت على استعداد أن تغضب عليها لدرجة خلع أسنانها [1]. أما فى حالة مساعدتها لها فى الأمور ذات الأهمية الاستثنائية فسرعان ما كانت تجرها خلفها . وكانت أول خطوة فى هذا هو التخلص من Silverias[2] بطريقة سأضعها فى مجلد لاحق [3].

والخطوة الثانية كانت تدمير يوحنا الكبادوكى وهو ما وصف سابقا فى مجلد سابق[٤]، وهنا أصبح الطريق ممهداً أمامها واختفت مخاوفها وأصبح كل شىء على المكشوف واستطاعت أن ترتكب كل الجرائم المذكورة دون أدنى تردد.

وكانت عائلة بليزاريوس تشتمل على طفل من تراقيا يدعى Theo-dosius والذى تربى على عقيدة الأنومية[٥] Eunomianism ، وفى عشية رحلته إلى ليبيا غسّل بليزاريوس هذا الصغير فى الحرم المقدس ثم رفعه فى ذراعيه وبهذا جعله الابن المتبنى له ولزوجته طبقا لقوانين التبنى التى كان يؤمن بها المسيحيون ، ومنذ هذه اللحظة، ومنذ أن جعلته هذه الكلمة المقدسة ابنا لأنطونينا - وكما كان متوقعا- عشقته المرأة وراقبته بمنتهى العناية وأبقته تحت جناحها ثم بعد فترة قصيرة وقعت فى حبه بطريقة جنونية أثناء تلك الرحلة وأسلمت نفسها جسداً وروحا لعاطفتها وضربت بأية خشية أو احترام لناموس الله وقوانين البشر عرض الحائط وخالطته جنسيا فى السر أولا ثم أمام أعين الخدم من كلا الجنسين وأصبحت عاجزة عن مقاومة هذه الرغبة ، كذلك أصبحت عبدة لشهواتها بطريقة لاتحتمل الخطأ حتى أنها لم ترأى مانع لانغماسها فى هذه الشهوات.

وفى أحد المرات فى قرطاجة فاجأهما بليزاريوس متلبسين ، ومع هذا فقد ابتلع تفسير زوجته الكاذب وهو فاغرفاه ، لقد وجدهما سويا فى حجرة بدروم ، وبالرغم من أنه قد استشاط غضبا لم تخجل أو تخفى هى ما فعلته بل قالت «لقد أتيت هنا حتى يمكن لهذا الشاب أن يساعدنى إخفاء هذا القدر من الغنائم هنا حتى إذا ما عرف الإمبراطور عنها».

لقد كان هذا مجرد اعتذار ولكنه رضى بهذا وأنهى الأمر بالرغم من أنه رأى تيودسيوس قد فك الحزام الذى يربط سراويله التى كانت تغطى جسده العارى. ولهذا فإن حبه الطاغى لهذه المرأة أرغمه على التظاهر بأن الدليل الذى رآه بكلتا عينيه كان كاذبا تماما.

وازدادت خلاعة أنطونينا بطريقة مطردة حتى وصلت إلى منحدر لايمكن تصوره ورأى الجميع ما كان يحدث، ولكن لم يجرؤ أحد أن ينطق بكلمة ماعدا خادمة تدعى ماكيدونيا، وفى سيراكيوز عندما هزم بليزاريوس صقلية استطاعت هذه الخادمة أن تجعل سيدها يقسم أغلظ الأيمان بألا يفشى ما قالته له لسيدتها وعندئذ أطلعته على كل القصة مؤيدة ذلك بشهادة اثنين من الصبية اللذين كانا عليهما العناية بحجرة النوم، وعند سماع هذا أمر بليزاريوس بعض أتباعه أن يقصوا ثيودسيوس بعيدا ، وسمع ثيودسيوس بهذا فى حينه فاندفع هاربا إلى أفسس . ولأن معظم أتباع بليزاريوس كانوا يعلمون بمزاجه المتقلب فقد اعتقدوا أنه من الأنسب أن ينحازوا للزوجة عن أن يؤيدوا الزوج، ولهذا فقد خالفوا تعليماته الخاصة بإبعاد ثيودسيوس.

وعندما رأى قسطنطين حال بليزاريوس المؤسف لما حدث، فقد عبر عن تعاطفه القوى قائلا «لو أننى كنت مكانك لتخلصت من المرأة وليس الصبى» وعندما سمعت أنطونينا بهذا وجهت غضبها تجاهه سراً منتظرة اللحظة المناسبة لتصب غضبها عليه لأنها كانت خبيثة خبث الحية كما كانت خبيرة فى إخفاء مشاعرها ، وبعد فترة وجيزة - سواء كان هذا عن طريق السحر أو عن طريق المراوغة- أقنعت زوجها بأن اتهام هذه الفتاة لها كان كاذبا، وعلى الفور دعا ثيودسيوس للعودة ، ووافق أن يسلم

ماكيدونيا والصبيين لزوجته فقطعت ألسنتهم - كما عرفنا- وقطعتهم إربا ووضعتهم فى أجولة وألقت بها فى البحر دون أن تهتز لها شعرة . ولقد ساعدها فى هذا الموضوع الشرير أحد الخدم من الرجال ويدعى أجينيوس Eugenius وهو الآلة التى نفذت بها المعاملة الوحشية لسلفيريوس.

وبعد فترة قصيرة أغرت أنطونينا زوجها أن يقتل قسطنطين أيضا لأنه فى مثل هذا الوقت بالضبط حدث موضوع Pracesidius والخناجر . وهذا الموضوع كنت قد ذكرته فى مجلد سابق[٦]، وكان من الممكن أن يعفى قسطنطين لو لم تكن أنطونينا عنيدة ونفذت فيه العقوبة مجازاة له على الجريمة التى ذكرتها قبل سطور قليلة، وعندما سلمه بليزاريوس جلب على نفسه عداءً مريراً من الإمبراطور والشعب الرومانى المتأثر جميعه وبهذا انتهى هذا الفصل من القصة.

ومع هذا فقد أرسل ثيودسيوس رسالة قال فيها إنه لايمكنه القدوم إلى إيطاليا طالما بليزاريوس وأنطونينا يقيمان فيها فى هذا الوقت - وما لم يستبعد فوتيوس[٧] من الطريق لأنه كان يعرف أن فوتيوس سريع العدوان إذا ما شعر أن هناك أى فرد آخر له تأثير أكثر منه فى أى مكان مهما كان - أما عن ثيودسيوس وأصدقائه فله القدر الكافى فى ابتلاع غضبه فقد وجد - بالرغم من أنه ابن- أنه لم يستفد شيئا بينما منافسه كان يستمتع بسلطان عظيم وكان يثرى ثراءً فاحشا، ويقال أنه فى قرطاجة ورافنا قد سلب مالايقل عن ١,٥٠٠٠٠ جنيه من القصرين اللذين استفاد من إدارتهما تحت مسئوليته وسيطر عليهما سيطرة تامة.

وعندما علمت أنطونينا برفض ثيودسيوس حاولت محاولات جادة أن

تحبسه وتطارده بخططها القاتلة إلى أن نجحت فى إرغامه على ترك إيطاليا والذهاب إلى بيزنطة حيث لم تعد هناك خطورة الوقوع فى مصيدتها، وفى مطاردتها لثيودسيوس ليلحق بها فى إيطاليا. وهناك كسبت متعة ليس لها حدود من اصطحاب عشيقها وبحمى زوجها وبعد قليل عادت إلى بيزنطة يصطحبها الاثنين معا. وفى العاصمة كان ثيودسيوس يعانى من الخوف أن تعرف جريمته ، وكان شارد الذهن، ولم ير أى احتمال لتأكيد الشك لأنه رأى أن أنطونينا لم تعد تخفى عواطفها أو حتى تطلق لها العنان فى السر- بل كانت سعيدة أن تكون زانية مشهورة وأن تعرف بهذا وعليه فقد قرر أن يذهب إلى أفسس ويقص شعره على الطريقة التقليدية عند قمة رأسه ووضع نفسه فى قائمة الرهبان، وعند معرفة ذلك فقدت أنطونينا صوابها تماما وغيرت ملابسها وكل سلوك حياتها إلى أسلوب حياة الحداد، وكانت تتجول دائما فى أركان المنزل تولول وتصرخ وتنتحب حتى فى حضور زوجها: يا له من كنز هذا الذى فقدته ، فكم كان مخلصا وكم كان جذابا وعطوفا مليئا بالحيوية، وفى النهاية جرف زوجها أيضا إلى هذا الرثاء وجعلته ينغمس فيه .

وعلى أية حال بدأ هذا الرجل التعيس فى البكاء والصراخ المرتفع على إبنه المحبوب ثيودسيوس ، وفيما بعد تقرب من الإمبراطور والإمبراطورة ملتجئا إليهما إلى أن أقنعهما أن يعيدا ثيودسيوس حيث لايمكن الاستغناء عنه فى حياتهما اليومية وسيكون هكذا دائما، أما ثيودسيوس فقد رفض جهراً أن يترك أفسس مصمما أنه قد قرر أن يكدس كل طاعته لتعاليم الرهبنة ، وبالطبع كانت هذه أكذوبة واضحة

ففى نفس الوقت الذى ترك فيه بليزاريوس بيزنطة خطط هو للالتحاق بأنطونينا خلسة ونفذ هذا فعلا، فبعد أن اصطحب بليزاريوس فوتيوس معه وهو فى طريقه لمواصلة الحرب ضد خسرو Chosroes تخلفت عنهما أنطونينا كما لم تفعل إطلاقا من قبل فلقد اعتادت دائما أن ترافق زوجها فى كل أنحاء العالم حتى تتمكن من منعه عن الانفراد بنفسه والاحتكام إلى عقله، وتمنعه أيضا من النظر باحتقار إلى ألاعيبها السحرية ويراها على حقيقتها.

ولكن تمكن ثيودسيوس من مواصلة جماعه بها فقد اهتمت بإبعاد فوتيوس عن طريقها، ومن أجل هذا الغرض حرَّضت بعض أتباع زوجها أن يعذبوه ويهينوه بصفة دائمة دون ترك أى فرصة لتنفيذ هذا، وفى نفس الوقت كانت تكتب بنفسها كل يوم سيل من الافتراءات لانهاية له، وبهذا جعلت الصبى هو هدفًا لكل الأسلحة، وردًا على هذه المعاملة قرر فوتيوس أن يطلق الإشاعات عن والدته مهما كانت الأحوال ، وعندما وصل رجل من بيزنطة حاملا الأخبار التى تقول أن ثيودسيوس يقيم مع أنطونينا فى السر، أخذه فى الحال إلى حضرة بليزاريوس مناشداً إياه أن يحكى القصة بأكملها. وعندما علم بليزاريوس بالحقيقة امتلأ بالغضب وألقى بنفسه تحت أقدام فوتيوس وتوسل للصبى أن ينتقم له بنفس الوحشية التى أسيء له بها من قبل من لم يتوقع منهم هذا وصاح قائلاً: يا ولدى العزيز أليس لديك فكرة عما كان عليه حال والدك لأنك كنت لم تزل طفلا فى ذراعى عندما رحل عن هذه الحياة ولم يترك لك شيئا فإن الحياة لم تكن قد أنعمت عليه بالكثير من عطاياها، لقد ربيتك رغم إنك لست من صلبى والآن قد وصلت إلى السن التى تجعل من واجبك

الدفاع عنى بالقوة وبالحيلة إذا ما أسيىء إلى ولقد رفعت إلى مكانة قنصل (مستشار) وجمعت من الثروة ما يجعلنى أفخر بأبوتى لك.

ولكونى كل أقاربك- يا صديقى العزيز- بكل النوايا والأغراض ، لأنه ليس بصلة الدم ولكن بالعطف المتبادل يقيس الناس عاطفتهم تجاه بعضهم، فقد حان الوقت الذى يجب فيه ألاتدعونى - بالإضافة إلى تحطيم حياتى الزوجية- أن أتخلى عن ممتلكاتى على هذا النطاق الواسع وأيضا لاتطلب من أمك أن تصب على نفسها مهانة كاملة وتذكر أن خطايا النساء لاتقع على أزواجهن فحسب بل تدمرن حياة أولادهن الذين سيقذف بهم سوء الحظ أن يتجشموا تبعة سمعة الأمهات حيث أنهن يشبهونهن بالطبيعة فى شخصياتهم ويجب أن تدرك أيضا أن هذا الوضع ينطبق على فقد أحببت زوجتى للغاية ولو أن فرصة أتيحت لى لأعطى من دمر حياتى الزوجية ما يستحقه فسوف لا أمسها هى بسوء. ولكن طالما أن تيودوسيوس ما زال حيا فلن أسامحها على ما اقترفت».

وبناء على هذا فقد وافق فوتيوس أن يساعد والده بقدر المستطاع بالرغم من أنه كان يخشى أن تنفيذ هذا سوف يكلفه الكثير، فقد كان يؤمن إيمانا قويا أن لربيبه (لمن تبناه) مزاجا متقلبا سريعا حيال زوجته وهناك دلائل كثيرة جعلته يشعر بالقلق خصوصا ما حدث لما كيدونيا، ونظراً لهذا فقد أقسم كل منهما للآخر أغلظ الأيمان التى يعرفها المسيحيون والتى يعترف بها كعهد يأخذونه على أنفسهم بألايتخلوا عن بعضهم البعض فى أى من المواقف العصيبة، وحتى فى أكثر المواقف بأسا وخطورة.

وعند الممارسة كانت الصدمة ، إذ وجد عندئذ أن تنفيذ هذا مجد، فعندما وصلت أنطونينا من بيزنطة وذهب ثيودسيوس إلى أفسس حانت وقتذاك اللحظة لكى يظهر فوتيوس فى أفسس ويأخذ مكان ثيودسيوس وأمواله بأقل جهد ممكن.

وفى هذا الوقت بالضبط وعندما شنوا هجومهم الشامل على الأراضى الفارسية، حدثت واقعة حنا الكبادوكى John Cappadocian فى بيزنطة كما شرحت فى مجلد سابق[٨]. وفى هذا التقرير أعترف أن الخوف جعلنى أخفى إحدى الحقائق ألا وهو خداع حنا وإبنته بواسطة أنطونينا الذى لم يكن حدثا عارضا ولكنه كان مدعما بقدر كبير من الأيمان وأقوى أشكال الاعتراف فى نظر المسيحيين- مؤكدة لهما أنه ليس هناك أية خيانة ضدها. وعندما تحقق هدفها وشعرت بأمان فى رعاية الإمبراطورة بعثت ثيودسيوس إلى أفسس بينما اتجهت هى- دون أن تتوقع أية صعبة- إلى ناحية الشرق وكان بليزاريوس قد حاصر قلعة Sisawranon عندما أخبره أحدهم بوصولها المشرف وفى الحال طرد كل شىء من تفكيره وسحب قواته.

وحدثت- كما بينت فى تقريرى الأول- أحداث أخرى معينة فى المعسكر الرومانى جعلته عرضة للتقهقر فى هذا الوقت ولكن المعلومات التى عرفها عندئذ حفزته أن يأخذ هذه الخطوة بتسرع أكثر، وكما كتبت فى أول فقرة فى هذا الكتاب وكان رأيى فى هذا الوقت أن ما حدث أخطر من أن أستطيع ذكر مبرراته . وكان من نتائج هذه الحركة أن صدر اتهام ضد بليزاريوس من قبل الرومان فى كل مكان.

هذا الاتهام هو أنه ضحى بأهم أمور الدولة من أجل اهتماماته العائلية هذا لأن عناد زوجته كان قد أعجزه منذ البداية حتى أنه رفض رفضا باتا أن يذهب إلى ما وراء الإمبراطورية الرومانية مقرراً أنه طالما أن زوجته قد وصلت من بيزنطة فلابد له أن يلحق بها ويعاقبها هناك، ولهذا الغرض فقد أمر Arekhas ورجاله أن يعبروا نهر الدجلة ، ولكنهم لم يأتوا بنتائج مثمرة تستحق الذكر وعادوا فوراً إلى أرض الوطن بينما كان بليزاريوس حريصا على ألايذهب خلف الحدود الرومانية ولامسيرة يوم واحد.

وقد كانت قلعة Sisawranon[٩] - بالنسبة لأى مسافر له من العتاد القليل- تحتاج لأكثر من يوم بعد حدود روما لو أنه ذهب عن طريق مدينة Nisbis ولكن هناك طريق آخر يساوى نصف هذا الطريق ومع هذا فلو أنه استعد من البداية أن يعبر نهر الدجلة بكامل جيوشه فلاشك أنه كان من الممكن أن يأخذ كل منطقة Assyrian والتوجه مباشرة إلى مدينة Ctesiphon دون مواجهة أى مقاومة على الإطلاق ، وكان من الممكن تحرير الأسرى من أنطاكية Antioch[١٠]، وأى رومان آخرون كان من الممكن أن يكونوا هناك، وعندئذ كان يمكن العودة بأمان إلى أرض الآباء.

ومرة أخرى نقول إن خطأه فى هذا الوقت أن خسرو Chosroes لم يواجه أى اعتراض حقيقى فى طريق العودة من Calchis ، وسوف أفسر حالا كيف حدث هذا: عندما غزا خسرو ابن Cabodes أن Calchis وأحرز النجاح الذى سجلته فى مجلد سابق [١١]، مشتملا على حصار Petra[١٢]، كان الجيش الفارسى قد لحقت به خسائر فادحة أثناء القتال

الفعلى، وكذلك فى مفاوضاته مع هذا البلد الصعب ، وكما أشرت فى هذا المجلد لم يكن هناك طرق معبدة فى لازيقا Lazica وكانت الحفرات على كل جانب ، وهذا لم يكن كافيا ، فقد اكتسح الوباء الجنود ومات معظمهم بينما هلك الناجون بسبب نقص الطعام الضرورى.

وفى هذه المحنة أيضا عمل أشخاص قادمون من بلاد فارس أنباء تقول إن بليزاريوس قد هزم Nabedes فى معركة بالقرب من Nisibis وهو يتقدم إلى الأمام كما أنه اجتاح قلعة Sisawranin وأخذ Bles-chames أسيراً كما أنه أرسل قوة رومانية أخرى بقيادة Arekhas القائد العربى وأن هذه القوة قد عبرت نهر الدجلة ونهبت المناطق الريفية بأكملها، والتى كانت قد بقيت إلى هذا الوقت دون غزو، وحدث أيضا أن خسرو Chosroes كان قد أرسل فرقة من الهون لتحارب الـ Ar-manicins الذين كانوا من الرعايا الرومان على أمل أن الرومان سيكونون منشغلين هناك بالرد على هذا الخطر لدرجة ربما تنسيهم أحداث لازيقا.

وقد جلب رسل آخرون أنباء عن هؤلاء الهون وأن ڤاليريان Valerian والرومان التابعين له قد أوقفوهم ودخلوا معهم فى معركة وضربوا بعنف فى هذه المواجهة ونسفت كل الفرقة، أما الفرس فقد عانوا بؤسا لايحكى فى لازيقا لأنهم كانوا يخشون مواجهة بعض قوات العدو أثناء تراجعهم فى المعابر الضيقة والغابات الكثيفة ويهلكون عن بكرة أبيهم فى هذه الفوضى المؤسفة ولما سمعوا عن الكارثة الأخيرة انزعجوا من الخطر المهدد لزوجاتهم وأطفالهم ووطنهم، ولذا فقد بدأ أكثر الأعضاء مسئولية - فى هذا الجيش الضارب- الاعتراض بقوة على Chosroes متهما إياه بحنث العهد والقوانين الدولية المعترف بها بين جميع الدول، وأنه فى وقت

السلم كان قد غزا الأراضى الرومانية دون أية إثارة ، وأنه كان متهما بالعدوان على الدولة التى صمدت أمام تجارب الزمن وتفوقت على كل الدول الأخرى واستطاعت أن تصمد أمام هجماته المسلحة وحدث أن كان هناك خطر وشيك من حدوث تمرد وحاول Chosroes - وهو مترقب لهذا الخطر- أن يجد حلا لهذه الثورة بالعلاج التالى: لقد قرأ عليهم- بصوت مرتفع خطابًا كانت الإمبراطورة قد كتبته إلى Zaberganes قبل مدة قصيرة وكان مضمون الخطاب كالآتى:

«يالـه من تأثير قد وقع على Zaberganes باهتمامك الواضح بمصالحنا التى رأيتها بنفسك منذ فترة قصيرة مضت عندما قدمت كسفير فى بلاطنا. إن تقديرى الرفيع لك سوف يكون مؤكداً إذا شجعت الملك خسرو أن يتبع سياسة سلمية تجاه دولتنا، وفى هذه الحالة فإننى أضمن لك مكافأة قيمة من زوجى الذى لايأخذ قراراً - مهما كان دون موافقتى».

وعندما قرأ خسرو هذا الخطاب بصوت مرتفع قام بعزل أحد قادة الفرس الذين كانوا يتصورون أن دولة بمثل هذا الاسم كانت تديرها امرأة، وبهذا فقد تمكن من أن يمنع عنف عداء هؤلاء الرجال ، ومع هذا فقد كان متخوفا جدا وهو ينسحب متوقعا تماما أن يجد طريقه مسدوداً بقوات بليزاريوس ، ومع هذا فلم يظهر ولافرد واحد من الأعداء فى طريقه وعاد آمنا لأرض سيادته.

وعند الوصول إلى الأرض الرومانية وجد بليزاريوس أن زوجته قد وصلت من بيزنطة فوضعها تحت الحراسة فى مذلة وأجرى تحركات متكررة للتخلص منها كلية ولكنه دائما ما كان يلين- على ما يبدو-

لها بسبب العاطفة المتأججة تجاهها، وانتشرت إشاعة أن زوجته قد استعملت فنونها السحرية لتجعله عبداً لها، وفى الحال دمرت قراره فعلا. وفى نفس الوقت رحل فوتيوس بأقصى سرعة إلى أفسس آخذا معه أحد الخصيان Cunuchs واسمه Calligonus والذى كان يعمل قواداً لسيدته (أوعشيقته) وكان قد كبل الرجل بقيد، وأثناء الرحلة عذبه حتى أفشى كل أسرار أنطونينا.

وأخذ ثيودسيوس حذره واتخذ لنفسه محرابا فى كنيسة حنا الرسول John the Apostle أكثر الأحرام قداسة فى أفسس وأكثرها تبجيلا ، ولكن أندرو مطران أفسس قبل رشوة وسلمه لمطارده . وفى نفس الوقت كانت تيودورا قلقة على سلامة أنطونينا عندما سمعت بما أصابها فأمرت بليزاريوس أن يحضرها إلى بيزنطة، وعندما علم فوتيوس بذلك أرسل ثيودسيوس إلى قيليقية Cilicia حيث كان رجال الحرب والحرس الشخصى يختبئون فى فترة الشتاء معطيا تعليماته للحرس أن ينقلوا السجين خلسة، وعند وصولهم إلى قيليقية ليحبسوه فى مكان آمن تماما غير مصرحين لأى شخص أن يعرف له طريقا . أما هو فقد أخذ نقود ثيودسيوس - والتى كانت كمية لابأس بها- وذهب إلى بيزنطة بصحبة Calligonis وهناك كانت الإمبراطورة تكشف للجميع أنها عرفت كيف ترد هذا الجميل العدوانى بهدايا أكبر وأكثر عداءً (أو تلوثا) لقد أوقعت فى شرك أنطونينا أحد الأعداء وهو حنا الكبادوكى وأفشت سره إلى تيودورا التى سلمت أنطونينا جيشا صغيرا من الرجال، ودون أن تختار أى تهمة دمرتهم جميعا وأخضعت بعض أصدقاء بليزاريوس وفوتيوس المقربين للتعذيب البدنى، بالرغم من أنها لم يكن لديها أى شك ضدهم

إلا صداقتهم لهذين الرجلين، وقد أمكن التخلص منهم بطريقة لايمكننا حتى هذه اللحظة معرفة ما حدث بها أو كيف كانت نهايتهم.

ولقد اتهمت آخرين نفس الاتهام وحكم عليهم بالنفى، ولقد حرمت ثيودسيوس وهو أحد الرجال الذين اصطحبوا فوتيوس إلى أفسس من ممتلكاته - وقذفت به فى جب بالرغم من أنه كان قد نال شرف عضوية مجلس الشيوخ. وفى الجب كان عليه أن يقف فى ظلام دامس ورقبته مقيدة فى مزود (معلف) له خيه (عروة) ضيقة جدا لدرجة أنها كانت دائما تضيق حول عنقه ولاتُحل للحظة واحدة، وهكذا وقف المسكين على المزود بصفة دائما يأكل وينام ويؤدى كل الوظائف الطبيعية الأخرى وكان شبيها بحمار لاينقصه سوى النهيق ، واستمر على هذا الحال أربعة شهور كاملة حتى تغلب عليه الحزن والإعياء فأصيب بالجنون ، وحينئذ أطلق سراحه من هذا السجن ومات على الفور.

وقد أرغمت تيودورا بليزاريوس كذلك أن يفعل الكثير ضد رغباته وأن ينحى جانبا خلافه مع زوجته أنطونينا . أما فوتيوس فقد أخضعته لاذلال التعذيب أكثر من مرة ممزقة لحم ظهره وأكتافه بالجلد الوحشى مطالبة إياه أن يكشف لها مكان تيودسيوس والقواد. ولكن فوتيوس برغم التعذيب الذى كان يعانيه- صمم أن يحافظ على قسمه على الرغم من بنيته الضعيفة إذا كان فى شبابه ماجنا خليعا، وكثيرا ما كان يحاول أن يولى راحته الجسدية عناية فائقة وكانت المصاعب والمعاملة القاسية لاتعرف إليه سبيلا . ومع كل هذا لم يفش فوتيوس أى من أسرار بليزاريوس، ولكنه بعد فترة ظهرت كل الحقائق التى أخفاها، وأيضا وجدت الإمبراطورة أن Calligonus هناك وسلمته لأنطونينا ، وبعد ذلك استدعت تيودوسيوس إلى بيزنطة .

وعندما وصل أخفته على وجه السرعة فى القصر، وفى اليوم التالى أرسلت فى طلب أنطونينا وقالت لها: «يا عزيزتى Patrician لقد سقطت فى يدى لؤلؤة أمس، أجمل ما رأت العين من لآلىء فسوف لا أحرمك رؤياها إن أردت هذا بل سأريك إياها «فتوسلت إليها أنطونينا- التى لم تفهم ما المقصود بكل هذا - أن تريها هذه اللؤلؤة ، وآنذاك خرج ثيودسيوس من حجرة أحد الخصيان ، وشاهدته أنطونينا فتغلبت عليها الفرحة لدرجة أنها كانت تشعر بسعادة لم تمكنها من النطق بكلمة، وهنا اعترفت أن تيودورا قد غمرتها بالجميل وهتفت لها بأنها الحامية والرحيمة والسيدة حقا.

أما هذا التيودسيوس فقد حجزته الإمبراطورة فى العصر محاطا بالرفاهية والمتعة من كل نوع وأقسمت أنها ستجعله قائداً فى الجيش الرومانى فى المستقبل القريب، ولكنها حرمت من تنفيذ هذا الوعد إذ فاجأته نوبة دوستاريا وضعت نهاية لحياته.

أما تيودورا فقد كان لها حجرات سرية محتجبة تماما عن العين، دامسة الظلمة ومنعزلة حيث لايمكن التمييز بين الليل والنهار، وهناك سحبت فوتيوس ووضعته تحت الحراسة لمدة طويلة، ومن هذا السجن أتيحت له فرصة ذهبية للهروب مرتين وأصبح حراً والتجأ أول مرة إلى كنيسة والدة الإله التى كان يعتبرها البيزنطيون أكثر الكنائس قداسة- - وكان هذا الاسم قد نسب إليها فعلا- وجلس فوتيوس أمام المائدة المقدسة متضرعًا ومن هناك نقلته تيودورا بالقوة الوحشية وأرسلته مرة أخرى إلى سجنه . أما المرة الثانية فقد ذهب إلى كنيسة آيا صوفيا

وقبل أن يوقفه أحد جلس فى حوض المعمودية- الذى يقدسه المسيحيون فى كل العصور أكثر من أى شىء آخر- ولكن حتى من هذا المكان استطاعت المرأة أن تشده ، فلم تكن هناك بقعة حصينة لم يمكنها الوصول إليها.

وكان العنف الذى تتعرض له الأشياء المقدسة من أى نوع وكل نوع لايعتبر شيئا فى نظرها وكان القساوسة مثل عامة الشعب يصابون بالذعر منها حتى أنهم تركوا لها الطريق معداً لكى تفعل ما تشاء، وبهذا كان مقدراً لفوتيوس أن يقضى قرابة ثلاثة أعوام بهذه الطريقة . وفيما بعد تراءى له زكريا النبى فى حلم ويقال أنه أمره أن يهرب سراً واعداً إياه أن يساعده فى هذه المحاولة. ولأنه اقتنع بهذه الرؤيا فقد فر هاربا من سجنه متجها إلى القدس دون أن يتم القبض عليه. وبالرغم من الآلاف التى كانت مجندة للبحث عنه إلا أنه لم يتمكن أحدهم من التعرف عليه حتى بعد مقابلته وجها لوجه.

وفى القدس لبس لباس الرهبان وأعد نفسه ليصبح راهبا، وبهذا تمكن من الهروب من انتقام تيودورا . ومن ناحية أخرى لم يبق بليزاريوس على وعوده واختار ألايقدم أى مساعدة لابنه بالتبنى على الإطلاق بالرغم من أنه عُومل بطريقة مهينة كما أوضحت ، ولهذا فليس غريبا أن يجد يد الله تقف ضده فى كل مهامه المقبلة، فلم يكد يبعث فى مهمة ضد خسرو والفرس الذين كانوا قد غزوا الأراضى الرومانية للمرة الثالثة حتى أظهر نفسه جبانا أمام الجميع وقد بدا أنه فاز بنجاح ملحوظ فى أنه قد زعزع الحرب من هذه المنطقة ، أما عندما عبر خسرو نهر الفرات فقد أخذ مدينة Callinicus المزدهرة دون أن يواجه أى مقاومة وأسر عشرات الآلاف من الرومان.

أما بليزاريوس فلم يهتم حتى يتتبع العدو تاركا الناس معتقدين أن أحد شيئين قد حدثا: إما أن بليزاريوس قد تخلف عن أداء واجبه بسبب إهمال عمدى أو بسبب جبن واضح. ولم تمر فترة طويلة حتى تعرض بليزاريوس لضربة أخرى وهو الوباء الذى سجلته فى مجلد سابق (١٣)، والذى كان يحصد الناس بقسوة فى بيزنطة، وكان الإمبراطور جوستنيان من بين الذين هاجمهم الوباء، وكان يشعر بشدة المرض بل لقد ذكر أنه مات به، وقد انتشرت هذه القصة عن طريق الإشاعات ووصلت مباشرة إلى المعسكر الرومانى وهناك أعلن بعض الضباط أنه إذا ولى الرومان شخصا آخر فى بيزنطة إمبراطوراً عليهم فإنهم سوف لايخضعون له إطلاقا، ولكن حدث ما لم يتوقعه أحد وشفى الإمبراطور وحينئذ بدأ الضباط فى قذف الاتهامات على بعضهم البعض. فأصر Peter القائد وJohn الذى كان The Guzz على أنهما قد سمعا بليزاريوس وByzes يتحدثان بالطريقة التى سبق أن ذكرتها، أما هذه الانتقادات فقد ادعت الإمبراطورة تيودورا أن من أطلق هذه الانتقادات قد ألفوها ضدها هى شخصيا ، فلم تستطع احتواء غضبها فاستدعتهم جميعا فى الحال إلى بيزنطة وأجرت تحقيقا عن هذا البيان ثم استدعت Buzes دون إشعار لشقتها الخاصة كما لو كانت تريد استشارته فى موضوع ذى أهمية بالغة. وكان هناك مجموعة من الزنزانات تحت القصر محصنة ومؤمنة وتوحى بجهنم ذاتها، وكانت معتادة أن تسجن فيها كل من يتعرض لإغضابها ، وفى هذه الهوة ألقت Buzes بدوره ليبقى منسيا هناك للأبد بالرغم من كونه سليل المستشارين.

وبينما كان يجلس فى الظلام لم يكن يمكنه معرفة الليل من النهار

كما لم يكن له الحق فى التحدث إلى أى شخص آخر، وكان الرجل الذى اعتاد أن يقذف له تعيينه من الطعام يواجهه مواجهة وحش لآخر دون أن ينطق كلاهما بكلمة واحدة، وكان كل منهما واثقا أنه يواجه الموت فى كل مرة. أما مجرد ذكر اسمه أو الكلام عنه كلمة واحدة فقد كان هذا ما لم يجرؤ عليه أحد، وبعد عامين وأربعة شهور أشفقت تيودورا على سجينها وأطلقت سراحه، وكان الناس يحملقون فيه كما لو كان عائداً من بين الموتى، ولقد عانى المسكين بقية حياته من ضعف البصر وكانت صحته العامة ضعيفة جدا.

كانت هذه هى المعاملة التى عانى منها Buzes . أما بليزاريوس ، فبالرغم من أن هذه الاتهامات لم تلصق به إلا أنه - بتحريض من الإمبراطورة- حرمه الإمبراطور من القيادة التى كان منوطا بها ، وأحل محله Martin كقائد فى الشرق. أما رجال الحرب التابعين لبليزاريوس وحراسه وتابعيه الشخصيين والذين كانوا رجال حرب مدربين فقد أعطى الإمبراطور تعليماته بتقسيمهم بين بعض الضباط وخصيان القصور ، أما هؤلاء فقد أخذوا الكثير لهم واقتسموا السلاح وكل شىء بينهم كما كان يسمح حظ كل منهم. ومنع كثير من أصدقاء بليزاريوس ومساعدوه القدامى من الاتصال به بعد ذلك، وقد كان هذا منظراً يدعو للشفقة ولايمكن تصديقه .

وكان بليزاريوس يتجول فى بيزنطة كمواطن من نوع خاص، وحيدا، مطرقا وحزينا دائما ، وكان يعيش فى رعب دائم من الموت على يد قاتل. وعندما علمت الإمبراطورة أنه قد جمع ثروة عظيمة فى الشرق أرسلت أحد خصيان القصر ليحضر لها كل هذه الثروة.

أما بالنسبة لأنطونينا فقد طايعت زوجها ، ولكنها كانت صديقة حميمة للإمبراطورة إذ كانت تدبر لتدمير يوحنا الكبادوكى، ولهذا فقد قررت الإمبراطورة أن تكافىء أنطونينا ففعلت كل ما بوسعها لتجعل الأمر يبدو كما لو أنه بفضل شفاعة زوجته أن أبقى على الزوج وأنقذ من مصير بائس ، وكانت ترتب الأمور ليس فقط لتصالح أنطونينا زوجها التعيس بل لتبدو أيضا منقذته الحقيقية كما لو كانت قد حررته من الأسر، وبهذه الطريقة، وقد سارت الأمور بهذا الشكل فعلا. فقد أتى بليزاريوس إلى القصر مبكراً ذات صباح يصحبه كالعادة عدد قليل من المساكين الذين يؤمنون بالإنسانية ، ووجد عند جلاليتهما كل شىء ماعدا الود، وعندما بدأ المساومة أهانه أحد السوقة السفلة بشدة، وعاد إلى المنزل فى المساء، وفى طريق عودته كان ينظر فى كل الاتجاهات المحتملة ظنا منه أن من سيقتله سيتجه ناحيته، وفى خضم هذا الرعب صعد إلى غرفة نومه وجلس وحيداً فوق سريره وليس فى رأسه فكرة كريمة واحدة. وضاع من ذهنه أنه كان رجلا فى يوم من الأيام، وكان العرق يتصبب على وجهه دون توقف ، ودار رأسه وارتعش جسده معانيا البأس ، وكان ما يعذبه خوف ذليل، وقلق مهين لايليق برجل على الإطلاق.

أما أنطونينا - كما لو كانت لاتعرف ما يحدث ولاتلمح بأى شىء سيحدث- فكانت تسير فى الغرفة بلاتوقف مدعية أنها تخفف عن نفسها نوبة من نوبات «حرقان القلب» لأنهما كانا لايزالان ينظران إلى بعضهما بالشك. وفى هذا الوقت وصل رجل يدعى Quadratus من القصر وكان الظلام قد حل ومر هذا الرجل عبر البوابة- وظهر دون سابق

إنذار خارج أبواب مساكن الرجال وأعلن أن الإمبراطورة قد أرسلته إلى هناك . فلما سمع بليزاريوس بهذا سحب يديه ورجليه إلى السرير ورقد على ظهره بلاحراك معتقد أن ساعته قد حانت ، وبهذا تختلت عنه تماما كل معانى للرجولة ودون أن ينتظر حتى يقترب منه رفع Quadratus له خطابا من الإمبراطورة لكى يراه وكان يحتوى الآتى:

«كيف تصرفت حيالنا، يا سيدى العزيز، إنك تعرف تماما . ومع هذا فأنا مدينة بالكثير لزوجتك والتى من أجلها قد قررت أن ألقى كل الاتهامات التى أثيرت ضدك جاعلة منها هدية لحياتك ولهذا فمن الآن فصاعدا لاحاجة بك أن تخشى على حياتك أو على أموالك . أما كيف ستقدر أنت هذا لزوجتك فهذا ما سوف يبينه لنا سلوكك فى المستقبل».

وعندما قرأ بليزاريوس الخطاب جمع شتات جسده من الغطة وأراد أن يظهر شعوره فى هذا الوقت والمكان ولهذا فقد قفز على التو وألقى بنفسه على وجهه تحت قدمى زوجته وأحاط ركبتيها بذراعيه ثم أمطر كاحليها بالقبلات كل واحد بدوره، وأعلن لها أنه مدين لها بحياته وأقسم أنه من الآن فصاعدا سيكون عبدها المخلص وليس زوجها. ومن نقوده أعطت الإمبراطورة ما قيمته ١٥٠ ألف جنيه للإمبراطور ، ثم أعادت الميزان إلى بليزاريوس .

هكذا كان سقوط بليزاريوس القائد والذى أهدته الأقدار قبل فترة وجيزة Vittigis & Geliner [١٤] كأسرى حرب، وكان جوستنيان وتيودورا يشعران بغيرة مرة من ثروة الرجل لمدة طويلة . فقد كانت تلك الثروة أكبر مما يجب أن يكون فى بلاط إمبراطور . ولقد أصرا على أنه قد نقل هذا المقدار من الأموال من خزائن Vittigis & Geliner العامة

وأعطى جزءاً ضئيلاً جدا منه للإمبراطور . ولكن العناء الذى خاضه بليزاريوس ، واللعنة التى سيجلبوها على أنفسهم لايمكن إغفالها. كما أنهم لم يستطيعوا أن يدبروا أى اعتذار مقنع لما قاموا به ضده، ولهذا لجأوا إلى الزمن.

أما الآن وقد وجدت الإمبراطورة فى حالة رعب مهين وجبن كامل، فقد كانت ضربة واحدة كفيلة لأن تجعلها سيدته وصاحبة كل ممتلكاته . وسرعان ما دبروا فيما بينهم زواج Joanaina طفلة بليزاريوس الوحيدة وأنستاسيوس حفيد[١٥] الإمبراطورة، وهنا طلب بليزاريوس أن يسترد مكانته الأصلية وأن يعين رئيسا لقادة الشرق حتى يمكنه أن يقود الجيش الرومانى مرة أخرى ضد خسرو والفرس. ولكن أنطونينا لم تسمح بهذا فى هذا المكان من العالم وأصرت على أنه كان قد سبق أن أهانها بشدة ولذا لايجب أن يتمتع بهذا المنصب مرة أخرى. ولذا فقد عُين بليزاريوس سانسا للخيول الإمبراطورية Imperial Grooms ، وخرج إلى إيطاليا للمرة الثانية[١٦]، بعد أن أعطى الإمبراطور وعداً بألا يطلب ما لا أثناء حملته، بل إنه سيدفع من ماله الخاص تكاليف كل المعدات الضرورية ، ولقد ساد ظنا جماعيا بأن بليزاريوس قد أنهى مشكلة زوجته بهذه الطريقة وأعطى الإمبراطور الوعد السابق ذكره المتعلق بالحملة القادمة، كل هذا لغرض الابتعاد عن الحياة فى بيزنطة ، وفى نفس اللحظة التى سيجد نفسه فيها خارج أسوار المدينة سيعكف فوراً على حمل السلاح وينغمس فى أعمال بطولية جرئية حتى يمكن أن يحرز انتصاراً أمام زوجته وكل من أهانوه ، ومع هذا فلم يهتم بأى شىء كان يحدث ناسيا تماما ومتجاهلا الأيمان التى أقسمها لفوتيوس وكل أصدقائه المقربين

وذهب حيث وجهته زوجته لأنه كان يحبها حبا بلا أمل بالرغم من أنها كانت تبلغ من العمر ستين عاما[١٧].

وعندما وصل إلى إيطاليا لم يمض يوم واحد حتى سارت الأمور على غير ما يحب لأن يد الله كانت ضده بطريقة لاتقبل الخطأ ، فأولا نصدق أن الخطط التى أعدها فى هذه الظروف لمواجهة Theudatus & Vitigis بالرغم من أنها - ظاهريا- كانت غير مناسبة لأغراضه ، إلا أن الجزء الأكبر منها أحدث النتائج المرجوة ولكن فى مراحله الأخيرة، بالرغم من السمعة التى كسبها بأنه كان يخطط لحملاته تخطيطا سليما كنتيجة للخبرة التى اكتسبها إثر تعامله مع مشاكل هذه الحرب إلا أن النجاح الضئيل الذى أحرزه فى النهاية كان الحكم عليه بالخذلان خطأ واضح.

وعلى هذا فإنه من المؤكد أن تدبيراتنا ليست هى التى تسيطر على حياتنا ولكن قوة الله، هذا الأمر الذى دائما ما نشير إليه بأن الصدفة لمجرد أننا لانعلم ما الذى يجعل الأحداث تتبع الطريق الذى نراها تتبعه. فعندما لايكون هناك سبب لأمر ما فغالبا ما نرجع هذا الأمر إلى الصدفة المحتومة ولكن هذه قضية يختلف عليها منطقيا الكثير من الآراء .

وهكذا حدث أنه بعد قدوم بليزاريوس إلى إيطاليا مرة ثانية أن عاد إلى وطنه منزوع الثقة تماما كما أوضحت فى كتاب سابق[١٨] بالرغم من بذل الجهد خمس سنوات لم ينجح خلالها مرة واحدة فى أن يقوم بأى مهمة على أى جزء من الساحل مالم يكن هناك قلعة سهلة الاقتحام. وطوال هذا الوقت كان يتجول مبحراً يحاول محاولة تلو الأخرى أن يجد مكانا يرسو فيه. ويئس Tortila[١٩] من القبض عليه خارج الأسوار الحامية وفشل فى عمل أى اتصال لأن بليزاريوس نفسه والجيش

الرومانى بأكمله كانا فى قبضته الرعب الفظيع وكانت النتيجة أنه لم يفشل فقط فى أن يسترد ياردة واحدة من الأرض المفقودة ولكنه أيضا فقد روما كلية وبعد هذا بفترة قصيرة جداً فقد كل شىء آخر، وفى نفس الوقت كرس نفسه قلبا وقالبا للجرى وراء الثروة والحصول على أى كسب غير مشروع دون أى حدود بحجة أنه لم يأخذ مليما واحداً من الإمبراطور.

وفى الحقيقة فقد نهب كل الإيطاليين- دون تمييز- الذين كانوا يعيشون فى رافنا Ravenna أو فى صقلية، وأى فرد آخر يمكن الوصول إليه متظاهراً بأنه يفعل هذا ليجعلهم يدفعون عقوبة على أفعالهم، وهكذا ذهب إلى Herodian سائلا إياه مالا ومستخدما كل الوسائل الممكنة لإرهابه . وقد أغضب هذا Herodian لدرجة أنه أدار ظهره للجيش الرومانى، وفى الحال وضع نفسه بوحداته التى كانت تحت قيادته وكذلك مدينة Spolitium فى أيدى Totila والقوط .

أما كيف حدث أن بليزاريوس قد تشاجر مع ابن أخت Vitalian والمسمى John محدثين خسائر فادحة للقضية الرومانية فهذا هو التساؤل التالى الذى سأرد عليه : لقد حملت الإمبراطورة قدراً هائلا من الكراهية الوحشية Germanus عداءً لم تخفيه على الإطلاق ، لدرجة أنه لم يجرؤ فرد فى عائلته أن يتزوج بالرغم من أنه كان ابن أخت الإمبراطور وبقى أولاده دون زواج إلى أن ولت أجمل سنوات عمرهم[٢١]، وكذلك إبنته جستينا بقيت دون زواج بالرغم من أنها كانت إمرأة ناضجة لها من العمر ١٨ عاما، وبناء عليه فعندما أرسل بليزرايوس چون فى مهمة إلى بيزنطة أرغم Germanus أن يتفاوض معه فى موضوع زواجه

بها بالرغم من أن رتبة جون كانت أدنى بكثير من رتبته ، وعندما أعجب الاقتراح كليهما اتفقا أن يربطا بعضهما بأغلظ الأيمان بأنهما سيفعلان كل ما فى وسعهما من أجل إتمام هذا الرباط المقترح حيث لم يكن أى منهما يثق بالآخر، فأحدهما كان يعلم أنه يتخطى رتبته إلى مدى بعيد، والآخر لم يكن لديه أى أمل فى زوج إبنة آخر.

وكان هذا أكثر مما تحتمل الإمبراطورة فوضعت كل وساوسها جانبا وذهبت إليهما بكل إمكانياتها من الأسلحة ودون تردد صممت أن توصل خططهم إلى لاشىء . وعندما لم تثمر جهودها فى إرهابهما أعلنت بكلمات كثيرة أنها سوف تدمر چون، وعلى هذا ، وعندما أرسل فى مهمة أخرى إلى إيطاليا لم يجرؤوا أن يقترب من أى مكان يوجد فيه بليزاريوس خوفا من مكائد أنطونينا إلى أن عادت هذه السيدة إلى بيزنطة، وهناك كان لديه كل الحق فى أن يشك أن الإمبراطورة قد وكلتها فى مهمة ترتيب اغتياله.

وبما أن چون كان يعرف وزن شخصية أنطونينا وتذكر أن بليزاريوس قد ترك لزوجته حرية اختيار طريق خاص بها فى كل شىء ، فقد قبض عليه فى خوف ليس له حدود. فهل نتعجب أن السلطان الرومانى- الذى كان يقف على آخر قدميه- أن يتهاوى تماما. وهكذا ضاعت الحرب القوطية من بليزاريوس . وعندما يئس من النجاح توسل إلى الإمبراطور أن يسمح له بترك إيطاليا على الفور، وسعد عندما سمع أن الإمبراطور جوستنيان كان موافقا على طلبه، وعاد فوراً إلى الوطن تاركا الجيش الرومانى والإيطاليين يهتمون بأنفسهم وترك معظم البلد فى أيدى الأعداء بينما كانت مدينة Perusia المحاصرة تعانى مأزقا حرجا حتى

أنه قبل أن تكتمل رحلته اجتاحتها عاصفة وعاشت كل ألوان الرعب التى لايمكن تخيلها كما سجلت بكل التفاصيل سابقا(٢٢).

وفى نفس الوقت أصيب بضربة قاصمة فى حياته العائلية كما سنرى عندما فقدت الإمبراطورة تيودورا صبرها لعدم تنفيذ خطبة إبنة بليزاريوس إلى حفيدها كتبت خطابا تلو الآخر لوالدى الفتاة مهددة إياهما بالموت ، ومع شعورهم بالقلق نتيجة عدم تنفيذ هذا الاتفاق فكروا فى تأجيل الزواج حتى يعودوا، وعندما استدعتهم الإمبراطورة إلى بيزنطة تعللوا بأنه لايمكنهم ترك إيطاليا فى هذا الوقت.

ولكنها كرست كل جهدها لأن تجعل حفيدها سيداً لثروة بليزاريوس ، عالمة أن هذه الثروة ستؤول كلها إلى الفتاة ، لأن بليزاريوس لم يكن له طفل آخر، ولم تضع ثقتها فى توايا أنطونينا ، كما كانت تخشى عدم ولاء أنطونينا للبيت الإمبراطورى عند غيابها بالرغم من أن تيودورا كانت قد عاملتها بمنتهى الكرم عندما كانت تواجه المصاعب العنيفة، ولكنها خرقت العهد، وعلى هذا وتحديا لكل المبادىء جعلت الفتاة التى لم تنضج بعد تعيش مع الصبى ارتباطا غير شرعى ، ويقال أنه بالضغط على الفتاة سراً أرغمتها - رغم عدم رغبتها- أن تعاشره معاشرة الأزواج وعندما فقدت الفتاة عذريتها بهذه الطريقة ، دبرت أمر زواجهما خوفا من أن يوقف الإميراطور لعبتها الدنئية.

ومع كل هذا فعندما تم هذا العمل تأجج حب متقد بين أناستاسيوس وعروسه الصغيرة وقضيا ثمانية شهور كاملة سويا فى ترابط سعيد. ولكن عندما أزاح الموت الإمبراطورة أتت أنطونينا إلى بيزنطة متناسية الخدمات التى أنعمت بها تيودورا عليها أخيرا، ولم تعر أى اهتمام

لفكرة اعتبارها عاهرة سابقة فى حالة ما إذا تزوجت الفتاة بأى شخص آخر فلم تستفد هى من نسل تيودورا كزوج لابنتها. وبالرغم من أن الفتاة كانت رافضة رفضا باتا أن تنفصل عن الرجل الذى عشقته إلا أنها أرغمتها على ذلك.

وبهذا العمل اشتهرت شهرة عالمية بالقسوة المطلقة، ومع ذلك فعندما وصل زوجها لم تجد أى مشقة فى إقناعه بأن يتحمل معها المسئولية تجاه هذا الغضب الشنيع. وكانت عندئذ اللحظة التى تعرت فيها شخصية الرجل لكى يراها الجميع. لقد حدث فعلا أنه عندما أقسم لفوتيوس وأقرب أصدقائه فى مناسبة سابقة، وحنث فى وعده بطريقة مخجلة، أن سامحه الجميع لأن سبب خيانته - المشكوك فيه- لم يكن تعلق بزوجته ، ولكن خوفه من الإمبراطورة ، أما عندما أزاح الموت تيودورا - كما ذكرت- لم يهتم بفوتيوس ولا أى من أقرب المقربين إليه، ولكنه رضى أن يبدو وكأن زوجته كانت تسود عليه وأن يكون Calligonus قوادها هو السيد، وعند ذلك وأخيراً نبذه الجميع وأصبح هدفا لتشدق لا نهاية له وطرد محتقراً ومعروفا كغبى لا أمل فيه.

هكذا كان سجل أخطاء بليزاريوس- دون تنميق وبكل دقة: ودعنا الآن نستدير للأخطاء التى ارتكبها Sergius ابن باكوس فى ليبيا والتى كتبت عنها تقريراً كافيا فى مكانها المناسب [٢٤]، مبينا أنه فعل كما لم يفعل أحد غيره لتدمير السلطان الرومانى فى هذه المنطقة ، ليس فقط لأنه حنث فى قسمه الذى أقسمه على الإنجيل Leuathae ولكنه كذلك أعدم الثمانين سفيراً دون أدنى ادعاء .

وهناك إضافة واحدة فقط أود إضافتها إلى تقريرى وهى أن هؤلاء الرجال لم يكن لديهم دوافع تشاؤمية عندما قدموا إلى Sergius ولم يكن لديه أى عذر فى أن يشك فيهم فأعطاهم الوعد ودعاهم على العشاء ثم أعدمهم كأجبن ما يكون الأسلوب. لقد كان هذا الغضب هو الذى سبب دمار Solomon والجيش الرومانى وكل الليبيين لأن فى تقريره خاصة بعد موت Solomon والذى سجلته قبل هذا ، لم يكن هناك جنديا أو ضابطا مستعداً أن يواجه مغامرة الحرب. وأسوأ من هذا كله اشتد غضب John ابن Sisinniolus لدرجة أنه ترك المعركة حتى وصل Areobindus إلى ليبيا ولأن Sergius كان رقيقا ولاتصلح شخصيته للحرب وكان غير ناضج النمو، عبداً عاجزاً لايحسد ، متباهيا أمام الجميع، كما كانت المفاخرة طريق حياته وكان منتفخا بالكبرياء وبرغم هذا- كما حدث- تقدم للزواج من حفيدة أنطونينا زوجة بليزاريوس ، ولهذا فقد انحرفت الإمبراطورة لمعاقبته بأى طريقة أو بحرمانه من القيادة بالرغم من أنها كانت ترى أن دمار ليبيا كان يسير بخطى سريعة .

وبموافقة الإمبراطور التامة سمحت لسلمون شقيق سرجيوس وهو قاتل Pegasius أن يذهب آمنا مطمئنا، وسأوضح حالا كيف حدث هذا عندما افتدى Pegasius سولمون من الـ Leuathae وعادت القبيلة إلى أرض الوطن توجه سولمون مع بيجاسيوس مفتدية وحفنة من الجنود إلى قرطاجة، وفى الطريق ضبط بيجاسيوس سولمون وهو يرتكب إثما من نوع ما فقال معلقا على ذلك أنه ما كان له أن ينسى كيف أنقذه الله من أيدى الأعداء منذ فترة قصيرة . واعتقد سولمون أنه يسخر منه لأنه أوقع

نفسه فى الحبس فقتله على الفور وكان هذا رداً مؤسفا على الرجل الذى أنقذ حياته، وعندما وصل سولون إلى بيزنطة برأه الإمبراطور من جريمة القتل على أساس أنه كان قد قتل أحد الخونة المعاديين للإمبراطورية الرومانية، وأكثر من هذا أعطاه خطابا مؤكداً حصانته من أية تصرفات فى هذا الموضوع وبهذا هرب من العقوبة وتوجه فى سعادة غامرة إلى الشرق ليزور موطنه الأصلى وعائلته فى أرض الأجداد ، ولكن عقاب الله لحق به فى الطريق وأزاله من عالم البشر. وقد رويت الكثير جدا فى قصة سولون وبيجاسيوس.

الهوامش

١- مستعارة من السلام Peace لأريستوفانيس .

٢- هو البابا سيلفيريوس كبير الأساقفة.

٣- لم يكتب هذا المجلد إطلاقا، وربما كان بروكوبيوس يعنى أنه سيذكر هذا مستقبلا فى هذا المجلد ، وإذا كان الأمر هكذا فإنه قد أهمل فى الإيفاء بوعده.

٤- الكتاب الأول Histories .

٥- هو أسقف مدينة Cyzias فى القرن الرابع، والأنوموين ينكرون أى شبه بين الآب والابن، ولذلك تعتبر نوع من الهرطقة.

٦- الكتاب السادس VI .

٧- ابن أنطونينا من زوج سابق.

٨- الكتاب الثانى II .

٩- تبلغ ٢٤ ميلا كما أخبرنا بروكوبيوس فى موضع آخر.

١٠- كان خسرو قد استولى على أنطاكية سنة ٥٤٠م .

١١- الكتاب الثانى II .

١٢- تقع هذه المدينة فى Cholchis وليست المدينة الرئيسية فى البلاد العربية المعروفة بالبتراء.

١٣- الكتاب الثانى، والتاريخ هو سنة ٥٤٢م .

١٤- ملوك من الوندال والقوط الشرقيين .

١٥- كان جدة هذا الشاب المزمع زواجه تبلغ من العمر ٤٠ عاما ما لم يكن بركوبيوس قد قدم موعد الخطبة.

١٦- كانت حرب الاسترداد فى إيطاليا والمعروفة بالحرب القوطية لم تنته بعد، فقد انتهت سنة ٥٦٣م .

١٧- كان زوجها يبلغ من العمر ٣٩ عاما.

١٨- الكتاب السابع VII .

١٩- قوطى انتخب ملكا سنة ٥٤١م واكتسح معظم إيطاليا وصقلية، ولكنه هُزم سنة ٥٥٢م وقتله القائد البيزنطى نارسيس Narses .

٢٠- قائد رومانى .

٢١- أو طوال فترة حياة الإمبراطورة، والإغريق يشكون فى ذلك .

٢٢- الكتاب السابع VII .

٢٣- تبدو هذه القصة مناقضة للعبارة التى تقول إن أنطونينا كان لها من العمر ٦٠ عاما.

٢٤- الكتاب الرابع IV .

الفصل الثانى
جستين وجوستنيان وتيودورا

أى نوع من البشر كان جوستنيان وتيودورا ؟

وكيف حدث أنهما دمرا عظمة روما ؟

هذه هى التساؤلات التى يجب أن أجيب عليها فيما يلى:

عندما كان ليو Leon معتليا العرش الإمبراطورى لبيزنطة شن ثلاثة فلاحين من منطقة الليريا وهم Justin و Zimarchus و Dity-Vistus الذى أتى من Vederiana - حربا لانهاية لها على أرض الوطن بكل ما يعنى الفقر من معان ولذا فقد قرروا أن يفروا من هذا الفقر وتوجهوا للالتحاق بالجيش وقطعوا كل المسافة إلى بيزنطة سيراً على الأقدام حاملين على أكتافهم عباءات لم يكن فيها شىء عند وصولهم سوى بعض قطع البسكويت الجاف التى أسقطوها فى عباءاتهم قبل ترك أوطانهم.

وسجلت أسماءهم فى سجلات الجيش ثم التقطهم الإمبراطور ليعملوا فى حرس القصر لأنهم كانوا جميعا ذوو لياقة بدنية غير عادية ، وبعد فترة من الوقت وعندما نجح أنستاسيوس فى الوصول إلى السلطان الإمبراطورى، انغمس فى الحرب مع الأيسوريين Isaurians الذين حملوا السلاح ضده فأرسل جيشا ذا حجم لابأس به ليتعامل معهم ، وكان جون الأحدب هو قائد الجيش ، وقد حبس جون هذا جستين فى السجن بسبب بعض الانحرافات على أمل أن يستبعده فى اليوم التالى، وكان من

الممكن أن يفعل هذا لولا أن رؤية ظهرت له فى حلم بأن يتوقف عن هذا وقد بيّن القائد أنه رأى فى هذا الحلم مخلوقًا ذا حجم ضخم وأقوى من أن يفهم على أنه إنسان وأمره هذا المخلوق أن يطلق سراح الرجل الذى كان قد سجنه ذاك اليوم؛ ولقد طرد هذه الرؤيا من خاطره عندما استيقظ من نومه، ولكنه سمع نفس الكلمات فى حلم فى الليلة التالية وظل غير راغب فى تنفيذ هذا الأمر، إلا أن الرؤيا ظهرت له للمرة الثالثة مهددة إياه بدمار شامل إذا ما امتنع عن عمل ما يخبر به كما أضافت أنه فى أحد الأيام سيواجه ضائقة وعندها سيحتاج لهذا الرجل وعائلته.

ولقد مكن هذا الحدث جستين من أن ينجو من خطر محيق وبمرور الوقت اكتسب قوة عظيمة وخوّل له الإمبراطور انستاسيوس قيادة حرس القصر، وعندما غاب عن الموقع نجح جستين فى الوصول إلى العرش بقوة هذه القيادة بالرغم من أنه كان وقتها كهلا وأميا تماما ولم يكن يعرف الحروف الهجائية الأولى فى حديثه العام، وكان هذا شيئا لم يحدث من قبل بين الرومان، وقد كان تقليدا راسخا أن يذيل الإمبراطور كل الوثائق بتوقيعه مشتملا على اللوائح التى كان يقترحها ، ومع هذا لم يكن جستين قادراً على كتابة لوائحه أو الاهتمام بالتفكير بذكاء فى الإجراءات المقترحة.

أما الموظف الذى كان مقدرا له أن يكون ناصحه الأساسى- وهو رجل يدعى Proclus - والذى كان برتبة Quaestor، فقد اعتاد أن يقرر كل الإجراءات كلما رآها مناسبة من وجهة نظره هو، ولضمان شرعية الإجراءات التى كانت بخط يد الإمبراطور فقد تدبر الرجال المسئولين عن ذلك بعمل الآتى: حفروا علامة- فوق شريط قصير من الخشب المصقول-

أشكال لأربع حروف هجاء للكلمة اللاتينية التى تعنى «قرأت» I have read [١]، وكانوا يغمسون قلما فى الحبر المخصص للأباطرة ويضعونه فى يد الإمبراطور چستين ثم يأخذون قطعة الخشب التى وصفت بعاليه ، ويضعونها على الوثيقة ويمسكون يد الإمبراطور وبينما كان ممسكا بالقلم يحركون يده فوق أشكال الحروف الأربعة ويمرون بها حول كل الانحناءات المحفورة فى «المرقمة» الخشبية «العلامة» ثم يمضون حاملين كتابة الإمبراطور كما هى.

كان هذا نوعا من الأباطرة لقيه الرومان فى چستين . ولقد تزوج چستين امرأة تدعى Lupicina ، وهى عبدة أجنبية كان يطاردها رجل آخر قبله وأصبحت المخطية عنده ولكن فى أواخر أيامها أصبحت شريكة چستين فى حكم الإمبراطورية الرومانية. ولم يكن چستين قادراً على إحداث أى ضرر أو منفعة لشعبه. لقد كان فظا للغاية، غير واضح الكلام، خشن الطباع بشكل لايمكن تصديقه ، ومع أن ابن أخته چوستنيان كان لايزال صغيراً إلا أنه اعتاد أن يدبر كل شئون الدولة وجلب على الرومان مصائب فاقت فى خطورتها وعددها كل ما سجلته حقب التاريخ . فقد اعتاد أن يقتل المواطنين دون سبب ، ونهب ممتلكات الآخرين ولم يكن يعنيه كم من الآلاف فقدوا حياتهم بالرغم من أنهم لم يثوروا عليه ، ولم يكن يهتم بصيانة المؤسسات المشيدة، كما كانت البدع التى لانهاية لها هى شغله الشاغل دوما، وباختصار فقد كان مخربا فريداً من نوعه لكل المؤسسات القيمة.

وكما ذكرت فى مجلد سابق- اجتاح الطاعون العالم وبينما نجا الكثير، لأن هذه الكارثة قد خضعت - إما لأن من نجوا لم يصابوا

بالعدوى نهائيا أو أنهم تغلبوا عليها فى حالة إصابتهم بها. أما هذا الرجل فلم يتمكن رجل واحد فى كل الإمبراطورية الرومانية من النجاة منه، فمثل أى عقوبة تسقط من السماء على الجنس البشرى بأكمله فلم يترك أحداً إلا وأصابه ، فقتل البعض دون أدنى سبب، كما حول البعض إلى حالة الفقر المدقع جاعلا إياهم أكثر بؤسا من الذين ماتوا ، وفى الحقيقة كانوا يتوسلون إليه أن يضع حداً لشقائهم بأى طريقة للموت مهما كانت أليمة . كما حرم بعض الناس من ممتلكاتهم وحياتهم أيضا. ولم يكتف بهذا التدمير للإمبراطورية الرومانية بل إنه صمم أن يجعل نفسه سيداً على ليبيا وإيطاليا لهدف واحد هو تذمير سكانهم كما فعل مع شعبه ، وفعلا لم يمكث عشرة أيام فى القيادة حتى قتل Amantius مدير حرس القصر من الخصيان ومعه آخرين كثير بلا أى سبب على الإطلاق سوى اتهامه لأمانتيوس بعدم حكمته فى الحديث عن چون مطران المدينة. ولقد جعله هذا التهور مهابا أكثر من أى إنسان على وجه الأرض.

أما خطوته التالية فكانت استدعاء Vitalian المدعى والذى كان قد ضمن له سلامته سابقا بأن اشترك معه فى العشاء المقدس ، ولكن بعد فترة قصيرة اتهمه چوستنيان على غير أساس أكيد وأعدمه فى القصر هو وأصدقاءه المقربين دون أدنى تبرير ، ولم يحاول أن يضع فى الاعتبار تعهده الذى كان أكثر التعهدات قداسة.

أما عن الشعب فقد كان مقسما إلى جزئين كما شرحت فى كتاب سابق[٣]. وقد ألحق چوستنيان نفسه بأحد هذين الفريقين وهو فريق

الزرق، وأعطى تأييده المتحمس لهذا الفريق، وبهذا خلق الوسيلة لإيجاد الفوضى العامة، وبهذا العمل جعل الدولة الرومانية تجثو على ركبتيها. ومع كل هذا لم يكن الزرق على استعداد للسير خلف قيادة جوستنيان ماعدا المحاربين من الموالين وحتى هؤلاء - بتطور الأحداث من سيىء إلى أسوأ- ظهر أنهم رجال ينظمون أنفسهم بطريقتهم الخاصة لأن التصريح الذي أعطى لهم تخطى حدود المخالفات التى ارتكبوها فعلا.

ولاحاجة بنا أن نبين أن الموالين من الخضر لم يبقوا صامتين أيضا ولكنهم بدأوا فى عمل جرائم لايوقفهم فيها أحد لأنه كان مسموح لهم بهذا بالرغم من أنه فى كل لحظة كان يدفع أحدهم ثمن أفعاله وبالتالى كانت إثارتهم للجرائم مستمرة وغاية فى الوقاحة ، لأن الناس عندما يعاملون بالظلم فمن الطبيعى أن يتجهوا إلى طرق يائسة. وبما أن جوستنيان كان يشعل النيران بينهم، ويحفز الزرق بطريقة مكشوفة فقد كانت النتيجة أن اهتزت الإمبراطورية الرومانية بأكملها وسقطت إلى الحضيض كما لو أن زلزالا أو طوفانا قد وقع عليها، أو كما لو أن كل المدن قد سقطت فى أيدى العدو حيث انتشرت الفوضى فى كل مكان ولم يعد شيء كما كان من قبل وأثناء الفوضى التى حدثت بعد ذلك قلبت القوانين ومؤسسات الدولة المنظمة رأسا على عقب.

ولنبدأ بما فعله الموالون إذ غيروا طريقة تصفيف شعورهم إلى أسلوب جديد تماما فقصوه بطريقة تختلف تماما عن أى فرد رومانى ولم يمسوا شواربهم أو ذقونهم على الإطلاق وتركوها تنمو كأطول ما تكون مثل الفرس، أما شعر مقدمة الرأس فقد قصوه إلى الخلف وحتى منطقة السوالف، أما خلف ذلك فتركوه ينمو ويسترسل بطريقة غير منتظمة

مثل الـ Massagetae ولهذا سموا هذه الطريقة طريقة الـ Hunnish.

وفيما يختص بالملابس فقد اعتقدوا أنه من الضرورى أن تبدو عليهم الرفاهية فلبسوا زيا مرفها جداً لايتناسب مع منزلتهم حيث كانوا يتمتعون بمنزلة تمكنهم من الحصول على مثل هذه الملابس على حساب الآخرين ، أما الجزء من القمصان الذى كان يغطى أذرعهم فقد كان يضيق جداً عند الوسط، ومن الوسط وحتى الأكتاف كانت تتسع اتساعا فضفاضا حتى إنهم كلما كانوا يلوحون بأيديهم تشجيعا لمن يفضلون وهم يصرخون فى المسرح أو فى ساحة سباق الخيل كالمعتاد فقد كان هذا الجزء من الزى يرتفع عاليا فى الهواء معطيا إيحاء للأغبياء من الشعب بأن أجسامهم كانت فتية لدرجة رائعة ، لدرجة أنهم اضطروا لتغطيتها بمثل هذه الملابس ولم يدركوا أن شفافية وفراغ هذا الزى كان يظهر أجسادهم الضعيفة أكثر من أى شىء آخر.

وكانت حراملهم وسراويلهم وأحذيتهم فى معظم الحالات تحمل اسم وشكل الـ Hunnish . وكان معظمهم فى البداية يحملون أسلحتهم ليلا وبطريقة ظاهرة بينما كانوا يخفون سيوفا قصيرة ذات حدين بمحاذاة أفخاذهم تحت العباءة أثناء النهار. وقد اعتادوا أن يتجمعوا على هيئة عصابات عند حلول الليل وينشلوا أفراد الطبقة العليا سواء فى الميادين العامة أو فى الأزقة الضيقة ويجردون أى شخص يقابلهم من عباءته وأحزمته ودبابيسه الذهبية وأى شىء آخر كما اتجه البعض لتحبيذ طريقة القتل مع النشل طالما أن القتلى سوف لايبلغون عنهم وسببت هذه الثورة سخطا عاما خاصة بين الزرق الذين لم يكونوا محاربين موالين لأنهم كانوا يعانون مثلما كان يعانى الآخرون.

ونتيجة لهذا بدأ الناس منذ هذا الوقت فصاعداً فى لبس الأحزمة والدبابيس المصنوعة من البرونز وعباءات من خامات أرخص من تلك التى كان يرتديها أصحاب المنزلة المضمونة خوفا من أن يكلفهم حبهم للجمال فقدان حياتهم. وكانوا يسرعون عائدين إلى منازلهم قبل غروب الشمس ويدخلون تحت الأغطية ، ونتيجة لاستمرار هذه الحالة السيئة للدولة ولعدم أخذ السلطات المسئولية للمدينة موقفا من المتهمين فقد ازدادت وقاحة هؤلاء الرجال وبدأوا القفز والوثب.

ومن الطبيعى أن عدم اتخاذ أى إجراء ضد المخطئين يدفعهم لزيادة الخطأ بدون حدود وحتى عندما يعاقبون فإن هذا لايضع حداً لهم نهائيًا ، ومن الطبيعى أيضا أن يتجه معظم الناس إلى الانحراف وكان هذا مصير الأمور مع الزرق - أما عن منافسيهم فقد بدأ بعضهم فى الانضمام إلى فريقهم من خلال رغبة فى الاشتراك فى نشاطهم الإجرامى دون أن يوقع عليهم أى جزاء وهرب آخرون وتسللوا إلى بلاد أخرى . أما الذين قبض عليهم فى المدينة فقد أزاحهم منافسوهم من الطريق أو أعدمتهم السلطات ، وانضم عدد كبير من الشباب إلى هذه التنظيمات فلم يكونوا قد اهتموا بهذه الأمور من قبل ، ولكن التطلع من أجل السلطة وحرية التصرف المطلقة جذبتهم إليها.

فلم يكن هناك جريمة ثورية واحدة عرفها الإنسان لم ترتكب فى هذا الوقت وقد تركت بلاعقاب . لقد بدأوا بتدمير الموالين للفريق المعادى ثم استمروا فى قتل هؤلاء الذين لم يستسمحوهم فى أى شىء وكان الكثير يكسب مودتهم بالرشاوى ثم يرشدونهم إلى أعدائهم ، وقد تخلص الموالون من هذا النوع على الفور وضموهم إلى قائمة الخضر، بالرغم من

أنهم لم يكونوا يعرفوا شيئا عنهم، ولم يعد كل ما يحدث يتم فى الظلام أو بعيدا عن الأبصار ، ولكن فى أى لحظة من النهار، وفى أى مكان فى المدينة، ولم يعد عظماء المدينة شهود عيان لما كان يحدث كالسابق.

وبناء عليه فلم يكن هناك حاجة لإخفاء هذه الجرائم طالما أن المجرمين لم يكن يزعجهم أى خوف من العقوبة، وفى الحقيقة كانت تحركهم روح المنافسة حتى أنهم نظموا عروضا للقوة العضلية والصلابة ليظهروا أنهم- بضربة واحدة - يستطيعون قتل أى فرد يقابلونه بلاسلاح ، ولم يعد أحد يأمل فى أن يطول عمره بين هذه المخاطر التى تهددهم يوميا ، وجعل الخوف المستمر كل الناس يتخيلون الموت فى كل ركن إذا لم يكن هناك مكان آمن، ولم يكن هناك زمان يضمن لهم السلام ، لأنه وحتى فى أكثر الكنائس قداسة، وفى الاحتفالات العامة ، كان الناس يقتلون دون شعور ، وأصبحت الثقة بالأقارب والنسب شيئا ينتمى إلى الماضى حيث هلك الكثيرون من خلال الدسائس التى كان يدبرها أقرب أقربائهم ومع هذا لم يجر أى تحقيق فى الجرائم التى ارتكبت فقد كانت الضربة المؤكدة تقع دون سابق إنذار، ودون أن يجد الذين سقطوا من ينتقمون منه، فلم يكن هناك قانون أو عقد ليوقف أى قوة على أساس مضمون لنظام موضوع. ولكن تحول كل شىء إلى عنف زائد وفوضى ، وكانت الحكومة تشبه طاغية جبار، ولم يكن هذا الطاغية ثابتا بل متغيراً كل يوم ومتجدداً دوما، كما كانت قرارات الحكام توحى بشلل الخوف - وكان الرعب يسود عقولهم من رجل واحد، أما المحلفون فكانوا يبنون فتاويهم أو أحكامهم - عندما يحكمون فى قضية مطروحة للمناقشة - ليس على أساس فكرهم أو رأيهم لما هو عادل وقانونى، ولكن بالنسبة

للعلاقات العدائية أو الودية بين المتنازعين على أحد الموالين ، وإذا لم يبال أي محلف بتوصياتهم فإنه يدفع حياته جزاء لهذا، وكان الدائنون يلاقون ضغوطا لايمكن مقاومتها حتى يعيدوا الاتفاق المكتوب للمدينين دون أن يستردوا مليما واحداً من هذا الدين، وكانو على العديد من الناس يسرحوا خدمهم بكل حزن وأسف ، ويقال أيضا أن عدداً من النساء أرغموا بواسطة خدمهم أن يستسلموا لعدة اقتراحات كريهة على أنفسهم، أما أولاد الرجال ذات المراكز العليا فى هذا الوقت، أرغموا والديهم أن يقوموا بعمل العديد من الأشياء التى لم يكونوا مستعدين لعملها وبصفة خاصة يسلمونهم نقودهم ، وكان هذا يحدث بعد اختلاطهم بهؤلاء المجرمين من صغار السن، أما العديد من الأولاد الغير راغبين فى تنفيذ هذا، أرغموا على القيام بعلاقات لا أخلاقية مع هؤلاء الموالين بمعرفة آبائهم التامة.

أما النساء الذين كانوا يعيشون حياة زوجية سعيدة فقد عانوا من نفس الإذلال، ويقال أن أحد السيدات اللاتى كن يرتدين زيا راقيا كانت تبحر مع زوجها إلى إحدى الضواحى على الناحية المقابلة من أرض الوطن، وأثناء هذا العبور أوقفهم الموالون وفصلوا السيدة من ذراع زوجها وحملوها إلى قاربهم الخاص، وقبل أن تذهب هى مع هؤلاء الشباب همست لزوجها مشجعة إياه، وأخيرته ألايخاف فمن جانبها سوف لاتستسلم أبداً لأى إثارة جسدية . وبينما كان زوجها لايزال يراقبها وهو يبكى قفزت من فوق ظهر القارب، ومنذ هذه اللحظة لم يراها أحد مرة أخرى.

هكذا كانت تسير أعمال العنف التى أتهم بها الموالون فى بيزنطة فى

هذه الحقبة، ولكن هذه الأمور سببت للضحايا بؤسا لايقل عن البؤس الذى سببته أخطاء عاناها المجتمع على يد جوستنيان ، لأن هؤلاء الذين يعانون من ضرر المجرمين الوحشى يمكنهم مواجهة هذا البؤس الناتج عن مجتمع فوضوى بأن يعيشون على أمل أن القانون والدولة ستتولى عقاب هؤلاء المجرمين ، لأن الناس عندما يتعرضون للعنف من قبل سلطات الدولة فإنهم بالطبع يصابون بالحزن نتيجة ما تحملوه من متاعب ويقعون فريسة اليأس لعدم توقعهم العدالة. لقد خان جوستنيان شعبه ليس فقط لأنه رفض أن يعوض الضحايا عما عانوه ، ولكن لأنه كان مستعداً تماما أن يصنع من نفسه بطلا معترف به للموالين لأنه بعثر كميات كبيرة من الأموال على هؤلاء الشبان ، وأبقى العديد منهم حوله ، والبعض منهم فى وظائف حكومية ومراكز قيادية.

وهكذا كانت تسير الأمور فى بيزنطة وفى بقية الأنحاء، لأنه مثل أى مرض آخر، انتشرت العدوى التى بدأت فى العاصمة سريعا فى كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية، ولم يهتم الإمبراطور إطلاقا بما كان يحدث لأنه كان رجل عديم الإحساس بالرغم من أنه كان شاهد عيان لكل الأحداث فى هذه الساحة، ولأنه كان ساذجًا ليس لديه فطنة، مثل الحمار مستعد أن يقوده أى شخص يشد لجامه وهو يلوح بآذانه طوال الوقت.

وبينما كان جوستنيان يتصرف بهذه الطريقة فإنه كان يخلق الفوضى فى كل شىء آخر، فلم يكد يمسك بزمام الأمور فى حكم خاله حتى بدأ فى تبديد الأموال العامة بطريقة طائشة ، وكان مقتنعا بهذا جداً عندما وقعت يديه عليها. وكان من وقت لآخر يتصل ببعض قبائل الهون ويطرهم ببوابل من المال «مقابل خدمات للدولة» ، وكانت النتيجة

الحتمية أن أرض روما تعرضت لغزوات مستمرة حيث لم يستطع هؤلاء البرابرة- بعد أن تذوقوا الثروة الرومانية- أن يبتعدوا عن الطريق الذى يقود إلى العاصمة.

ومرة أخرى لم يتردد فى أن يلقى بكميات كبيرة من المال فى بناء المبانى على طول ساحل البحر على أمل أن تمنع ضربات الأمواج المستمرة، وابتداء من الشاطىء دفع إلى الأمام بكميات كبيرة من الحجارة مصمما على أن يقف هذا حاجزاً دون اقتحام الماء. وكما حدث ، حاول جاهدا أن يقف منافسا لقوة البحر بقوة الثروة.

لقد جمع فى يديه كل الممتلكات الخاصة بالشعب الرومانى فى كل مكان عن طريق اتهامهم ببعض الجرائم التى لم يرتكبوها قط أو عن طريق التملق موحيا لهم بإعطائه هذه الممتلكات كهدية بلامقابل. وقد آلت إليه الملكية التامة للمتلكات الكثيرة التى كانت يملكها الذين حكم عليهم بالموت أو الجرائم الأخرى الكبيرة، وبهذا فروا دون أن ينالون عقوبة جرائمهم، وآخرون ادعوا ملكيتهم لأراضى جيرانهم دون وجه حق ووجدوا أنه من المستحيل الفوز بالانتصار على منافسيهم لأن قضيتهم غير شرعية، ولهذا جعلوا للإمبراطور هدية من هذه الممتلكات موضوع النزاع، وتبرأوا من الموضوع بأكمله، وقد ضمنوا بهذا الكرم الذى لم يكلفهم شيئا أن يقدموا تقدمة إلى جلالته، وبالوسائل الغير شرعية تمكنوا من الفوز على منافسيهم (خصومهم).

وبعد هذا أعتقد أنه من الأنسب أن أصف مظهر جوستنيان الشخصى، فلم يكن بنيانه الجسدى طويلا أو قصير أكثر من المعتاد، ولكنه كان ذو طول عادى ولم يكن نحيفا جدا بل ممتلئا إلى حد ما، ذو

وجه مستدير ، يسترد لونه الصحى حتى بعد صيام يومين ولو وصف مظهره العام فى كلمة واحدة فقد كان يحمل تشابها قويا لدوميتيان بن فسبسيان الذى ترك سلوكه الوحشى أثره على الرومان لدرجة أنهم حتى بعد أن قطعوا جسده إربا لم يشعروا أنهم قد شفوا غليلهم منه. ولقد أصدر مجلس الشيوخ أمراً يمنع فيه بقاء اسم هذا الإمبراطور منقوشا أو مسجلا على هيئة تمثال كامل أو وجه فقط، وبالطبع، أزيل بالأزميل أى نقش فى أى مكان فى روما أو غيرها مما كان يحمل تصويرا له، فى حين تركوا بقية التماثيل الأخرى سليمة كاملة، أما هو فلم يعد هناك شىء يمثله فى كل الإمبراطورية الرومانية ماعدا تمثالا منفرداً من البرونز وقد نجا بالطريقة الآتية:

كانت زوجة دوميتيان من أصل طيب وتتمتع بقدر عال من الاحترام، فلم تخطىء أدنى خطأ فى حق أى إنسان على وجه الأرض ولاكانت موافقة على أى من أخطاء زوجها، ولهذا فقد كانت تنال عظيم الاحترام، فأرسل لها مجلس الشيوخ فى هذا الوقت وسألها أن تطلب أى شىء تتمناه، فتقدمت بطلب واحد وهو أن تأخذ جثة دوميتيان لتدفنها وتقيم لها تمثالا من البرونز فى مكان تختاره بنفسها، فوافق مجلس الشيوخ على هذا ، فوضعت هذه الأرملة الخطة التالية حتى تترك للأجيال القادمة دليلا على قساوة هؤلاء الذين قطعوا جسد زوجها: جمعت أشلاء دوميتيان وبعناية وضعت كل قطعة بجوار ماينا سبها ثم حاكت الجسد بالغرز وعرضته على النحاتين وطلبت منهم أن يصنعوا له تمثالا من البرونز مجسدين النهاية الأليمة لهذا الرجل الميت. وأعد الفنانون التمثال دون تأخير، وأخذته الأرملة وأقامته فى الطريق الذى يقود إلى

الكابيتول وعلى الجانب الأيمن عندما تتوجه إلى هناك من ساحة روما يطالعك شكل ونهاية دوميتيان الأليمة، وهو باق إلى يومنا هذا. ويبدو محتملا أن بنية جوستنيان العامة وتعبيراته الفعلية وكل التفاصيل المميزة لوجهه ممثلة بوضوح فى هذا التمثال[٤].

وهكذا كان مظهره الخارجى . أما شخصيته فقد كانت أبعد من قدرتى على وصفه بدقة لأنه كان ميالا إلى عمل الشر، من السهل تضليله ، وغداً. وغبيا ، وإذا استعملت عبارة شائعة وصفته بأنه «لايصدق مطلقا» مع من كانوا معه ، وكان هناك دائما غرضا غير شريف وراء كل ما يقوله أو يفعله ومع هذا فقد كان طعاما سهلا لكل من يريد أن يخدعه ، وكان بطبعه خليطا شاذا من الغباء والشر ممزوجة لاتقبل الانفصال وربما يكون هذا مثلا لما اقترحه الفلاسفة التعليميين[٥]، منذ عدة سنوات : وهو أن الصفات المتضادة تماما يمكن أن تختلط مع طبيعة الإنسان مثلما تختلط الألوان. وعلى أى حال يجب أن أدعم وصفى هذا بالوقائع التى تمكنت من التأكد منها .

لقد كان هذا الإمبراطور متصنعا محتالا، منافقا، كتوما بطبعه ، ذو وجهين ، شخص ماهر له قدرة عجيبة على إخفاء رأيه الحقيقى، ويمكنه أن يذرف الدموع ، ليس بدافع الفرح أو الحزن، ولكن مجنداً هذا الدمع بمهارة تمشيا مع حاجته ، وقد كان كاذبا دائما ليس بداعى الإهمال ولكن مؤكداً قضيته سواء بتوقيع اسمه أو بأن يقسم بأغلظ الأيمان حتى عندما يتعامل مع رعيته، وسريعا ما كان لايعطى اعتباراً لاتفاقياته وتعهداته المبجلة كأحقر ما يكون العبيد الذين يعترفون بأفعالهم السيئة بعد أن كانوا قد أنكروها مقسمين على هذا، لأنهم يتوقعون تعذيبا منتظراً.

وكان أيضا صديقا خائنا وعدواً عنيداً، مكرسا مشاعره للقتل والسلب، محبا للشجار، مخربا إلى أقصى حد، سهل القياد إلى الشر، رافضا أى اقتراح باتباع طريق الحق، سريع التدبير فى المخططات الدنيئة وفى تنفيذها ، ينفر نفوراً غريزيًا لمجرد ذكر أى شىء صالح .

كيف يمكن لأى فرد أن يجد الكلمات التى تصف شخصية جوستنيان، إن كل هذه الرذائل وأخرى أعظم منها كان يملكها بشكل واضح وبدرجة لاتمت للإنسانية بصلة، وكان يبدو كما لو أن الطبيعة قد جردت بقية البشرية من كل ميل للشر ووضعته فى نفس ذلك الرجل ، وبالإضافة إلى كل الأشياد الأخرى ، كان مستعداً أن ينصت إلى اتهامات زائفة، سريعا فى إيقاع العقوبة لأنه لم يلتفت إلى الحقائق قبل إصدار الحكم، بل يعلن حكمه فوراً عند سماع الاتهام ، وكان يصدر أوامره لاغتصاب القرى وحرق المدن وإذلال أمته بأكملها دون أى مبرر على الإطلاق ، حتى أنه إذا أراد أحد أن ينتقى كل المصائب التى حدثت للرومان منذ البداية ويزنها مقابل المصائب التى كان جوستنيان مسئولا عنها، فإننى متأكد أنه سيجد أن أعظم مذبحة حدثت للبشرية كانت عن طريق هذا الرجل، وفاقت كل ما حدث فى القرون السابقة.

أما عن أموال الشعوب الأخرى فقد استولى عليها بالسرقة دون أدنى تردد لأنه لم يكن يفكر أنه من من الضرورى أن يعرض أى اعتذار أو إدعاء أو تبرير قبل امتلاك الأشياء التى ليس له الحق فيها، ومع هذا فعندما كان يضمن وجود المال كان يستعد استعداداً تاما ليبين احتقاره له عن طريق تبذيره الطائش أو إلقاء هذا المال إلى الأعداء المحتمل

هجومهم دون أدنى حاجة إلى هذا، وباختصار فإنه لم يبق مالا لنفسه، ولم يسمح لأى فرد آخر فى العالم أن يفعل هذا متظاهراً بأن جشعه للمال لم يتغلب عليه بل حسده هؤلاء الذين يملكون المال وبهذا نزع الثروة من أرض روما وأصبح خالقا لدولة مدقعة الفقر وهو سعيد.

إن ملامح شخصية جوستنيان إلى الحد الذى يسمح موقفى أن أبينها كانت تقريبا كما أوضحت بعاليه. ولقد تزوج زوجة يجب أن أشرح الآن أصلها وتربيتها ، وكيف أنها بعد أن أصبحت زوجته دمرت الدولة الرومانية جذوراً وفروعًا. فقد كان هناك رجل يدعى Acacius فى بيزنطة وكان حارسا لحيوانات السيرك منتميا إلى حزب الخضر، ويحمل لقب حارس الدببة ، وقد مات هذا الرجل نتيجة مرض- عندما كان أناستاسيوس يشغل العرش الإمبراطورى- تاركا ثلاث بنات وهن «كوميتو وتيودورا وأنستاسيا» ، وكانت كبراهن لم تكمل عامها السابع عشر بعد، وتزوجت أرملة هذا الرجل على أمل أن زوجها الجديد سيقاسمها من الآن فصاعداً إدارة منزلها والعناية بالحيوانات ، ولكن راقص السيرك الذى ينتمى إلى الخضر ، وكان يدعى Asterius قد أخذ رشوة لإزاحة الاثنين من وظائفهما، واستبدل فى هذا المكان صراف الرواتب دون أى صعوبة لأن راقصى السيرك كان مسموحًا لهم أن يرتبوا مثل هذه الأمور كما يشاءون ، ولكن عندما رأت الزوجة كل الشعب مجتمعا فى السيرك وضعت أكاليل الورد على رءوس البنات الصغيرات وفى أيديهن أيضا وجعلتهن يجلسن كمستجديات.

ورفض الخضر تماما قبول هذا الاستجداء ، أما الزرق فقد أعطوهم وظيفة مشابهة حيث مات أيضا حارس الدببة التابع لهم، وعندما كبر

الأطفال وضعتهم أمهم على خشبة المسرح فوراً حيث كان مظهرهم جذابًا جداً- لم يكونوا جميعا هكذا فى وقت واحد- وعلى أى حال كان يبدو لها أن كل واحدة منهن ناضجة بدرجة كافية لهذه الوظيفة ، وكانت الكبرى «كوميتو» قد أصبحت فعلا واحدة من أشهر العاهرات فى ذلك الوقت، و«تيودورا» التى جاءت بعد ذلك كانت ترتدى قميصا صغيراً ذا أكمام قصيرة وهو ملبس الخادمات ، واعتادت أن تساعد أختها بطرق مختلفة متتبعة إياها فى كل مكان حاملة فوق أكتافها دائما المقعد الذى اعتادت أن تجلس عليه أختها فى الاجتماعات العامة ، وفى هذا الوقت كانت تيودورا لاتزال غير ناضجة بدرجة تسمح لها أن تكون قادرة على مشاركة رجل فى مخدعه أو ممارسة الجنس كإمرأة ، ولكنها كانت تتصرف كعاهرة شاذة لإرضاء الزبائن من أدنى الأنواع بما فيهم الخدم الذين كانوا يصاحبون أسيادهم إلى المسرح وكانوا ينتهزون الفرص لتسلية أنفسهم بهذه الطريقة المنفرة.

وبقيت مدة لا بأس بها فى بيت للدعارة مكرسة نفسها لهذه التجارة الجسدية الغير طبيعية. ولكن بمجرد أن كبرت واكتمل نموها انضمت إلى النسوة على المسرح، وسريعا ما أصبحت غانية من النوع الذى أسماه أسلافنا «حشالة الجيش» لأنها لم تكن عازفة فلوت أو عازفة قيثارة وحتى لم تكن مدربة للانضمام إلى جوقة الراقصين، بل كانت تبيع جاذبيتها لأى شخص يأتى واضعة كل جسدها تحت إمرته ، وفيما بعد انضمت إلى الممثلين فى كل شئون المسرح ولعبت دوراً منتظما فى عروضهم المسرحية جاعلة من نفسها سخرية لبذاءة اللسان والمجون، وكانت ماهرة جدا ولها ذكاء حاد وأصبحت محبوبة فى وقت قصير لهذه

الأسباب ، ولم يكن عند هذه الفاجرة الصغيرة ذرة من التواضع ، ولم يراها أحد على الاطلاق وهى تتراجع فى أمر، فقد كانت تطيع أكثر الأوامر إثارة دون أدنى تردد ، وكانت من هذا النوع من الفتيات اللاتى إذا ضُرِبْن بشدة أو لُكِمْن على أذنيهن فإنها تجعل من هذا دعابة وتضحك عاليا ، وتقذف بملابسها بعيداً ، وتعرض مناطق جسدها عارية تماما للجميع بلاستثناء سواء من الأمام أو من الخلف، والتى تستدعى قواعد الذوق أن تبقى مختفية ومحتجبة عن أعين الرجال.

واعتادت أن تثير عشاقها بأن تجعلهم ينتظرون ، وتمارس دائما أساليب الروايات فى ممارسة الجنس ، والتى كانت تجعل بها مشتهيها يركع تحت قدميها وتوفر على نفسها انتظار دعوة أى شخص تقابله. وكانت تتشدق بالنكات القذرة ، وتفرج فخذيها موعزة بالدعوة لكل من يقابلها خاصة إذا كانوا فى سن المراهقة. ولم تكن تعطى نفسها بالانغماس الكامل الغير محدود لأى واحد، بل كانت غالبا ما تذهب إلى حفل عشاء يحضر فيه كل فرد عشاءه ، وكان يحضر الحفل عشرة من الشباب أو أكثر ، جميعهم فى قمة القوة الجسمانية ، والزنا هدفهم الأساسى فى الحياة ، وكانت تضاجع زملاء حفل العشاء كل بدوره طوال الليل، وعندما كانت تصل بهم جميعا إلى حالة الإنهاك كانت تذهب إلى خدمهم والذين يقدر عددهم بثلاثين فى بعض الأوقات وتضاجع كل منهم، وحتى بهذه الطريقة لم تكن ترضى شهوتها.

وفى إحدى الليالى ذهبت إلى منزل مواطن ذى مكانة ، وأثناء الشرب يقال أنها، وقفت عند نهاية الأريكة أمام أعين كل الضيوف وبالقرب من أقدمهم خلعت ملابسها بطريقة تدعو للاشمئزاز وبسلاطة

استعرضت شهوانيتها ، وبالرغم من أن هذه المرأة جندت ثلاث فتحات لخدمة هذه الأغراض فإنها كثيراً ما كانت تلوم الطبيعة على أخطائها وكانت تزمجر لأن الطبيعة لم تجعل فتحات حلميتها أوسع من المعتاد حتى تستطيع أن تخترع نوع آخر من أنواع الجماع الجنسى فى هذه المنطقة، وبالطبع كانت تحمل كثيرا، ولكنها كانت تصل إلى الإجهاض سريعا بواسطة كل الحيل الخاصة بهذه الحرفة، وغالبا ما كانت تلقى بملابسها على المسرح على مرأى من جميع الناس وتقف عارية فى وسطهم ولايغطى عورتها سوى حزام ، لم يكن هذا الحزام لأنها كانت تخجل من عرض هذه الأجزاء للعامة، ولكن لأنه لم يكن مسموحا لأحد أن يظهر هناك عاريا تماما، وكان هذا الحزام حول المناطق الحساسة إجباريا، وبهذا الحد الأدنى من الغطاء كانت تسترخى وترقد على الأرض ووجها إلى أعلى ، وكان بعض الخدم مكلفين بمهمة نثر حبوب الشعير فوق مناطق العورة من جسدها ، وكان بعض الأوز المدرب لهذا الغرض يلتقط هذه الحبوب بمنقاره ويبتلعها ، وتيودورا بعيدة عن الشعور بالخجل عندما تقف مرة أخرى بل كانت تبدو فخورة فعلا بهذا العرض لأنها لم تكن فقط فاجرة بل أنها شجعت الفجور كما لم يشجعه أحد من قبل.

واعتادت هذه المرأة على أن تلقى بملابسها وتقف بين الممثلين على المسرح منحنية إلى الخلف أو دافعة مؤخرتها إلى الخارج كدعوة للذين تمتعوا بها والذين لم يعشقونها بعد عارضة تلك الأنواع من الألعاب الخاصة بها. وبهذه الشهوانية كانت تسىء استخدام جسدها حتى أنها كانت تظهر أن مثل هذه الأجزاء الخاصة بالجنس من جسدها لم تكن

كبقية النساء فى المكان الذى حددته الطبعية بل فى وجهها، وأن عشاقها أظهروا أنهم يمارسون بهذا جنسا لايطابق قوانين الطبيعة. وكان أى فرد يشعر بشىء من الحياد يلتف حول نفسه متراجعا بسرعة خوفا من الاحتكاك بأى من ملابس هذه الفاجرة فيبدو ملطخا بهذا التلوث لأنه بالنسبة لهؤلاء الذين كانوا يرونها فى الساعات الأولى من النهار يعتبرونها نذير شؤم ، أما بالنسبة لزميلاتها من المشلات فقد اعتادت أن تثور عليهن فى جنون كالعاصفة لأنها كانت تحقد عليهن جدا .

وفيما بعد اصطحبت Hecabolus وكان أحد أفراد الـ Tyrion الذى تسلم قيادة حكومة Petapolis[٦] لتكون تحت إمرته بأقصى قدراتها على الإثارة، ولكنها جرته معها إلى السمعة السيئة فطردت دون مزيد من الضجيج . ونتيجة لهذا وجدت نفسها دون أدنى ضروريات الحياة والتى بدأت منذ هذا الوقت فصاعداً تحصل عليها بطريقتها التقليدية ، بأن تجعل جسدها أداة لحرفتها الغير قانونية، فأتت فى البداية إلى الإسكندرية ثم قامت برحلة حول الشرق كله عادت بعدها إلى بيزنطة ، وفى كل مدينة كانت تشغل مهنة من الأحسن أن لا يذكرها الإنسان إذا أراد أن ينال رضا الله، وكأن القوى الخفية لم تسمح أن تكون هناك بقعة على وجه الأرض ليست على علم بفجور تيودورا.

وهكذا كان مولد ونشأة هذه المرأة مثار حديث عام بين نساء الشوارع وبين الناس من كل الأنواع، وعندما عادت إلى بيزنطة كان ينتظرها بعاطفة غامرة، هذا الذى عاش معها فى البداية متخذها عشيقة له ورقاها إلى رتبة النبلاء، ومكن هذا تيودورا على الفور من امتلاك نفوذ هائل وثروة كبيرة، فإن هذا يحدث دائما للرجال الذين تسيرهم العاطفة

فقد بدا لعينى جوستنيان أن امتع ما فى العالم أن يبعثر كل أمواله وكل أفضاله على أغراض العاطفة، وعندما ساعدته تيودورا على هذا جلب على الناس فقراً أكثر بكثير من ذى قبل ليس فقط فى العاصمة بل فى كل جزء من أجزاء الإمبراطورية.

وبما أن كلا منهما كان يؤيد فريق الزرق فقد أعطيا هذا الفريق أو الحزب سلطانا هائلا على شئون الدولة ومر وقت طويل قبل أن يهدأ الشر إلى حد ملموس وحدث هذا بالطريق الآتية:

عانى جوستنيان من مرض خطير للغاية لدرجة أنهم أذاعوا نبأ موته ، وكان أصحاب الأحزاب- طوال الوقت- يسيئون التصرف بالطريقة التى سبق وصفها وحدث أن واحداً من الـ Hypatius وهو رجل ذو مكانة قتل بواسطتهم فى وضح النهار داخل كنيسة آيا صوفيا ، وعندما ارتكبت هذه الجريمة وصلت الفوضى التى سببها الحادث إلى الإمبراطور، وانتهز كل من كانوا حوله الفرصة التى أوجدها غياب جوستنيان عن شئون الشعب وفعلوا كل ما فى وسعهم لتأكيد خطورة ما حدث مقدمين له قائمة كاملة بكل الأحداث من البداية وحتى النهاية.

وعندئذ أصدر الإمبراطور تعليماته إلى رئيس المدينة أن يحاكم كل المتهمين، وكان هذا الموظف يدعى Theodotus وكان مشهوراً باسم Pumpkin «ثمرة القرع» فقام بفحص شامل لكل المعنيين، واستطاع القبض على العديد من الجناة وحكم عليهم بالإعدام طبقا للقانون ، ولكن العديد منهم تسلل من قبضته وهربوا ، وفى تاريخ لاحق اشتركوا فى تدمير الإمبراطورية.

وشفى الإمبراطور فجأة دون توقع وبدأ فى اتخاذ خطوات فى التخلص من Theodotus على أنه سجين وساحر ، ولكنه لم يستطع أن يخترع ادعاءً ممكنا ليبرر تدميره فأخضع بعض أصدقاء الرجل لأفظع أنواع التعذيب وطردهم لكى يتهموه بما لم يكن له أساس من الصحة ، وعندما ابتعد الجميع من طريقه ولاذوا بالصمت بحكمة شاعرين بالحزن على هذه الدسيسة ضد Theodotus ، أكد Procius وحده - والذى كان يمثل وزير الخزانة كما كانت تدعى- أن هذا الرجل برئيا من هذه التهمة ولم يفعل شيئا يستحق عليه الموت، ونتيجة لهذا نقل Theo-dotus نفسه بعيداً إلى أورشليم بإيعاز من الإمبراطور ، ولكن وصل إلى علم Theodotus أن بعض الرجال قد وصلوا إلى هناك.

هؤلاء الرجال قد انكبوا على التخلص منه فبقى فى الكنيسة لايتحرك منها إلى يوم وفاته ، وليس هناك ما نقوله أكثر من ذلك عن Theodotus . أما أصحاب الأحزاب فأصبحوا منذ هذا الوقت فصادعًا - أكثر الناس حكمة فى العالم وأقلعوا عن المغامرة وسوء التصرف بمثل هذه الطرق الفظيعة ، بالرغم من أنه كان لديهم كل الفرص فى الاستمرار بنفس الأسلوب وكسر القانون وربما بحصانة أكثر ، ولدينا دليل قاطع على أنه عندما أظهر عدد قليل منهم وقاحة مماثلة للماضى- بعد مرور فترة من الزمن- فإنهم لم ينالوا عقابا من أى نوع لأن من كانوا فى السلطة كانوا يشجعون الجناة على الجرائم وتهريبهم ، وشجعوهم بهذه المحاباة على أن يدوسوا القانون.

وبما أن الإمبراطورة كانت ما تزال حية فقد كان مستحيلا على جوستنيان أن يجعل من تيودورا زوجة شرعية له، ففى هذه النقطة فقط

عارضته الإمبراطورة بالرغم من أنها لم تعارض فى أى من أعماله الأخرى لأن هذه السيدة العجوز كانت تكره ما هو كريه وغير صحيح ، على الرغم من عدم ثقافتها، وأصلها الهمجى كما أسلفنا ، ولم تترك أى أثر ، وبقيت جاهلة تماما لشئون الدولة، وفى الحقيقة ألغت اسمها الحقيقى الذى شعرت أنه مثاراً للسخرية قبل أن تدخل القصر، واختارت لنفسها اسم Euphemia «صاحبة الكلمة الرقيقة» وبعد وقت لاحق ماتت الإمبراطورة ، وكان جستين فى شيخوخته وعجزه لدرجة أنه أصبح مثاراً للسخرية من رعيته، ومعرّضا للاحتقار الشديد من قبل الجميع بسبب جهله لما كان يحدث وتجاهله للأمور. وعلى الجانب الآخر كان الجميع يخشى جوستنيان ويتوددون إليه بكل الجهد لأنه كان يثير المشاكل دائما مسببا القلق العام والفوضى، واختار هذه اللحظة لتدبير خطبته إلى تيودورا .

وبما أنه كان مستحيلا على رجل وصل إلى مرتبة عضو مجلس الشيوخ أن يجعل عاهرة زوجة له ، لأن أكثر القوانين احتراما كانت تمنع هذا الأمر منذ البداية ، فقد أرغم جوستنيان الإمبراطور أن يلغى هذا القانون ويصدر قانونا آخر جديداً . ومنذ هذه اللحظة عاش مع تيودورا كزوجة شرعية له، وفتح المجال أمام الآخرين أن يخطبوا عاهرات، وبعدها اعتلى العرش الإمبراطورى بضربة واحدة شجاعة ملفقا عذراً يخفى به تناوله الجرىء للحدث وأعلن إمبراطوراً للرومان بالمشاركة مع خاله الذى أرغمه الخوف الجامح على التصويت على هذه الطريقة بارستقراطية تامة.

ومارس جوستنيان وتيودورا سلطاتهم الإمبراطورية قبل العيد[٧] بثلاثة أيام، الوقت الذى لم يكن مسموحا فيه أن يحيى أى فرد صديقا

له أو يتمنى له يوما سعيدا. وبعد أيام قليلة مات جستين بأسباب طبيعية بعد أن حكم تسع سنوات[٨]، وأصبح جوستنيان وتيودورا أصحاب الملك الوحيدين ، وهكذا حدث أن تيودورا التى ولدت ونشأت وتعلمت كما وصفت سابقا قد اعتلت العرش الإمبراطورى رغم كل المصاعب ، ولم يحدث إطلاقا أن خجل زوجها من سوء سلوكه على الرغم من أن مكانته كانت تسمح له بأن يأخذ نخبة الإمبراطورية الرومانية ويختار أن تكون عروسه صاحبة لقب أنبل النساء مولداً فى العالم وتكون قد تمتعت بأكثر أنواع التربية احتجابا ، واقترنت فعلا بالتواضع، وعاشت فى جو من العفة، جميلة للغاية، لاتزال عذراء أو كما كانوا يقولون «ذات صدر لم يُمس».

ولكنه لم يفعل هذا بل اختار لنفسه أن يمتلك آفة كل البشر، متناسيا كل الحقائق المسجلة على هذه الصفحات ، فتزوج من امرأة ذات وصمة مضاعفة بكل أنواع التلوث المذرى ، متهمة أكثر من مرة بجريمة قتل الأطفال عن طريق الإجهاض عمداً وليس هناك- على ما أعتقد- شىء آخر بحاجة لأن نذكره فيما يختص بشخصية هذا الرجل ويكفى هذا الزواج لأن يكشف بوضوح جداً كل عيوبه الأخلاقية التى كانت مترجما وشاهداً ومؤرخا تاريخيا للطريق الذى اتبعه ، لأنه عندما لايهتم إنسان بفضائح أعماله ولايتردد أن يكون مشهوراً أمام الجميع بلااستثناء كشخصية منفَّردة لاينغلق أمامها طريقا للشر بل مسلحة بعدم الخجل الواضح دائما على سمات وجهه ، فإنه يتقدم فى هذا الطريق ببشاشة دون تراجع عن أعماله التى تعافها النفس.

ومن المؤسف أن نقول أنه ما من عضو واحد من أعضاء مجلس الشيوخ كان يرى الدولة وهى مسوقة بهذا العار قد أعطى لنفسه الحق أن يعترض أو يعارض مثل هذه الأعمال بل أنهم كانوا يجثون جميعا أمامها كما لوكانت إلهة ، كما لم يبد قسيسا واحداً امتعاضه عندما يطلقون عليها لقب «السيدة» ، أما الشعب الذى كان قد شاهد عروضها السابقة فى المسرح فقد فكر على الفور بأنه من الأنسب أن يتبعوا الواقع ويسمونها «ذليلة العبيد» ولم يستاء أى جندى من استدعائه لمواجهة الخطر على أرض المعركة لصالح تيودورا كما لم يعارضها فرد واحد على وجه الأرض فقد خضع جميعهم - فى تصورى- لفكرة أن هذا كان قدراً محتومًا عليهم، وبناء على هذا لم يرفعوا أصابع المعارضة ليمنعوا هذه الحالة المنفرة لشئون الدولة كما لو أن القدر قد أعطاها مظاهر القوة ، ولأنها كانت تسيطر على كل شئون الناس فقد كان لايعنيها على الإطلاق أن ما تفعله سيكون قابلا للتبرير ، أو أن يشعر الناس بمبرر لما يحدث فعلا.

وفجأة وباستعراض ليس له داع للقوة رفعت للذروة رجلا كان قبل ذلك قد تعرض لمشكلة تلو الأخرى. وعندما كان يأخذ شيئا لنفسه لم تبد أى مقاومة على الإطلاق. وكانت تدس له الأمور حتى يسرع إلى الهدف الذى كانت تراه مناسبا وتختاره له، بينما كان الناس جميعا يقفون إلى الخلف دون تردد يفسحون الطريق لهذا القدر وهى تتقدم للأمام، وعلى أية حال يجب أن نترك هذا لله ليقرر مصير الأمور وكيف سيمكن الحديث عنها.

أما عن تيودورا فقد كان لها وجها جذابا وهيئة لابأس بها، قصيرة وممتلئة لكن ليس بدرجة كبيرة ، وكان يبدو عليها مسحة مشرقة، وكانت ذات نظرة ثاقبة دون تغير، وصلبة جدا ، ولو كان مسموحا لى أن أكتب تقريراً مفصلا عن حياتها على المسرح لفعلت هذا فى البقية الباقية من الوقت ، ولكن الأحداث القليلة التى التقطتها لحصرها فى الفقرات السابقة تكفى لتعطى صورة كاملة لشخصية هذه المرأة لكى يستنير الجيل القادم.

والآن يجب أن نرسم صورة هيكلية لما فعلته هى وزوجها سويا لأنه لم يحدث أن فعل أى منهما شيئا منفصلا عن الآخر وحتى نهاية حكمها المشترك ولمدة طويلة كان الاعتقاد السائد أنهما كانا مختلفين تماما فى أفكارهما واهتماماتهما، ولكن لوحظ فيما بعد أن هذا الاعتقاد الخاطئ، قد كوناه عامدين للتأكد من أن الشعب سوف لاينحى مشاكله جانبا ويثور ضدهما ، وأما فى مشاعرهما الحقيقية فقد كانا منقسمين عليه. وبدأ كل منهما يخلق انقسام بين المسيحيين بأن تظاهرا بأخذ موقفين مضادين فى الخلافات الدينية، وبهذا شقوا الجسد الواحد إلى نصفين كما سأوضح تقريبا.

وعندئذ أبقوا الأحزاب فى نزاع. فقد أعلنت الإمبراطورة أنها كانت ترمى بكل ثقلها خلف الزرق وبإمدادهم بالسلطة المطلقة بمهاجمة الحزب المضاد فقد مكنتهم من أن لايبالوا بأى التزام، وأن يقوموا بأفعال ثورية ذات عنف إجرامى، أما زوجها فتظاهر بأنه يغلى داخل وعاء مغلق ، وأنه غير قادر على مواجهة زوجته جهاراً ، وغالبا ما كانا يرتبكان فى تركيب شخصيتهما الحاكمة ويتجهان عكس بعضهما البعض، فمثلا يصمم هو أن يعاقب الزرق كجناة مجرمين بينما هى- فى غضب مصطنع

- تشكو بمرارة أنها استسلمت لزوجها تحت ضغط الاعتراض، وعلى أى حال فالموالين لحزب الزرق- كما أوضحت سابقا- كانو يبدون أكثر نظاما لأنهم كانوا مقتنعين بعدم شرعية التهور فى أعمال العنف تجاه جيرانهم، ومرة أخرى وفى هذا العداء المرير الذى أثارته القضايا كان يبدو أن كلا من الإمبراطور والإمبراطورة يساند أحد الخصمين ، وكما رتبا أن يكون النصر حليف بطل القضية الغير عادلة.

وبهذه الطريقة سلب كل منهما معظم ثروات الخصمين المتنافسين ، وأخيراً احتوت قائمة الإمبراطور على العديد من الأصدقاء الحميمين ورفعوا إلى مراكز مكنتهم من التعدى على القانون وارتكاب الجرائم ضد الدولة عن طيب خاطر ، ولكن بمجرد أن وضح أنهم قد أخذوا كفايتهم من الثروة اصطدموا مع تيودورا ووجدوا أنفسهم فى قائمتها السوداء. أولا : أن جوستنيان كان مستعداً تماما أن يعلن عن نفسه أنه مؤيدهم المتحمس ولكنه فيما بعد تعاطف مع المواطنين الفقراء وأصبح جافا مرة وفتر حماسه ناحيتهم وكانت هذه إشارة لشريكته لتدميرهم تدميراً لاتقوم لهم بعده قائمة ، بينما كان هو يغلق عينيه تماما عما كان يحدث ويفتح ذراعيه ليستقبل ممتلكاتهم كلها التى حصل عليها هكذا دون خجل ، وأثناء ممارسة هذه الحيل كانا يتزاملان بشكل غير قابل للتغير بالرغم من أنهما كانا يتصرفان أمام الناس كما لو أنهما يشهران الخناجر فى وجه بعضهما ، وبهذا نجحا فى تفريق الرعية إلى فريقين ، وفى هذا الانشقاق قويت قبضتهما لدرجة لايمكن معها الإفلات.

الهوامش

١- L. E. G. I

٢- الكتاب الثانى II .

٣- الكتاب الأول I . والمقصود بهم الزرق والخضر.

٤- إن هذه القصة الغريبة والتى حدثت فعلا قبل عصر بروكوبيوس تبدو ملفقه لتعطى دليلا على مظهر التمثال الغريب، ومن المحتمل أنه لم يكن جسد دوميتيان ، ولكن تمثاله هو الذى جُمعت أجزاؤه التى تحطمت كباقى التماثيل بناء على أمر مجلس الشيوخ. أما بالنسبة لأرملة دوميتيان المخلصة فهناك بعض الشك فى أن يكون لها يد فى مقتل زوجها .

٥- يرى الفلاسفة التعليميين أن الصفات المتضادة تماما يمكن أن تختلط مع طبيعة الإنسان مثلما تختلط الألوان.

وهذه الطائفة من الفلاسفة يعرفون أيضا بالفلاسفة المدرسيين الذين ظهروا فى بلاد اليونان فى العصور القديمة ، وكانت فلسفتهم تقوم على منهج الشك من أجل الشك، والجدل والمحاورة ولذلك عرفوا بالسفسطائيين.

٦- مجموعة مكونة من ٥ مدن فى ليبيا .

٧- عيد الفصح .

٨- من سنته ٥١٨- سنة ٥٢٧م .

الفصل الثالث
سوء حكم جوستنيان

عندما اعتلى جوستنيان العرش لم يمر وقت طويل حتى سادت الفوضى فى كل شىء، وأبيحت الأمور التى يمنعها القانون واحدة تلو الأخرى، واكتُسحت التقاليد الراسخة كلية كما لو إنه كان مكلفا كحاكم لأن يغير الأمور إلى أشكال جديدة، فألقى المكاتب الحكومية المؤسسة منذ فترة طويلة، وأقام غيرها جديدة لإدارة شئون الدولة، وتعامل مع القوانين الخاصة بالأرض ، وتنظيمات الجيش بنفس الطريقة، ليس لأن العدالة كانت تتطلب هذا أو حثته المصلحة العامة عليه، ولكن لمجرد أن يبدو كل شىء جديداً ويرتبط باسمه،، فلو أن شيئا لم يسمح الموقف بتنفيذه فى وقته وحينه فإنه كان على الأقل يلحق اسمه به، ولم يكن يشبع من أخذ الممتلكات بالقوة وقتل رعاياه، وعندما سلب منازل الكثير من أعيان الشعب فسريعا ما كان يبحث عن غيرهم مبعثرا هذه الأموال على قبيلة تلو قبيلة من القبائل الأجنبية، أو على مشاريع المبانى الجنونية، مبذراً فى كل ما جمعه من غنائمه السابقة، وعندما كان يتخلص من آلاف وآلاف من الناس دون أى عذر- أو كما يبدو هكذا- فإنه كان يدبر خططا سريعة لعمل نفس الشىء تجاه الآخرين، والذين كان عددهم أكثر من ذى قبل .

وفى هذا الوقت كان الرومان فى حالة سلم مع كل الدول الأخرى ، ولما كان جوستنيان لايعرف كيف يرضى شهوته للدم فى هذا الجو فقد استمر

فى إيقاع كل الدول الأجنبية فى حبائل القتال مع بعضها . وكان يرسل إلى زعماء قبائل الهون كميات كبيرة من المال دون أى مبرر، ويتبذير لاشعورى مستسمحا إياهم فى قبول هذه الأموال كطلب صداقة معهم، ولقد كتبت أنه كان يفعل هذا عندما كان جستين على العرش.

أما عن زعماء القبائل فقد اعتادوا بعد تسلم هذا الخير المفاجىء أن يرسلوا إخوانهم من زعماء القبائل الأخرى على رأس رجالهم، ويشجعونهم على القيام بغارات مفاجئة على الأرض الإمبراطورية حتى يمكنهم أيضا أن يأخذوا عنوة ثمنا للسلم من الرجل الذى كان على استعداد أن يدفع ثمنه دون أى داع ، وبدأ هؤلاء الرؤساء على الفور فى استعباد الإمبراطورية الرومانية ، وكانوا دائما يجعلون الإمبراطور يدفع، وحذا حذوهم آخرون، وعلى الفور انضموا إليهم فى أخذ الغنائم من الرومان التعساء. وعلى قمة هذه الغنائم التى تسلمها الهون كمكافأة على غاراتهم منحة كبيرة من الإمبراطور المبذر.

وبهذه الطريقة وباختصار ، ومن نهاية عام إلى نهاية عام آخر، كان الكل قد أخذ دوراً فى نهب وسلب كل شىء فى متناول أيديهم، لأن هذه الأجناس كان لها مجموعات كبيرة من الزعماء ، ودارت الحرب مع مجموعة تلو الأخرى كل بدوره نتيجة تبذير جوستنيان الذى لم يكن لديه مبرر، ولم يكن يصل إلى نهاية ، بل استمر يدور فى حلقة حول نفسه شهرا بعد شهر وعاما بعد عام، وبهذا لم ينجو من النهب فى هذا العصر حفنة تراب أو جبل أو كهف أو أى شىء آخر على أرض الرومان، واكتسحت الحرب عدة أماكن لخمس مرات أو أكثر، كل هذه المصائب ، وكل ما عاناه الشعب الرومانى على يد الـ Medes والعرب والصقليين

والـ Artae والدول الأجنبية الأخرى قد ذكرت فى كتبى السابقة، ولكن - كما قلت فى الفقرة الأولى من الكتاب الحالى- أنه من الضرورى أن أوضح الآن على من تقع المسئولية فى كل ما حدث .

فقد سلم جوستنيان إلى خسرو كميات كبيرة من الذهب لضمان السلم، وحينئذ ودون عذر أو اعتبار لرأى أى فرد آخر جعل من نفسه مسئولا عن خرق الهدنة بتصميمه على إبرام تحالف مع Alamondar-us، وقبائل الهون التابعة له الذين كانوا متحالفين مع الفرس كما وصفت فى الفصل الذى يختص بهذا الموضوع[١]، وأظهرته بوضوح كاف على ما أعتقد ، فبينما كان يثير الحروب الحزبية والمعارك التى جلبت مثل هذا الشقاء على الرومان، وألهب نيران المعارك لهدف واحد وهو أن تمتلىء الأرض بدم البشر بكل الوسائل الممكنة، ويمكنه هو الحصول على المزيد من الغنائم ، وكان سببا فى حدوث مذبحة فظيعة بين أفراد رعيته والتى حدثت بهذه الطريقة.

انتشرت فى الإمبراطورية الرومانية عقائد غير الأرثوذكسية عرفت بصفة عامة كهرطقات مثل Montanism و Sabbatarianism [٢] وأنواع أخرى متعددة قادت الناس إلى الأخطاء المذهبية بصفة مستمرة ، فصدر أمر إلى كل الملتزمين بهذه العقائد أن ينكروا معتقداتهم السابقة تحت التهديد الدائم بالعقاب جزاء مخالفتهم، وأهم هذه العقوبات كان سحب حقهم فى أن يتركوا ممتلكاتهم لأطفالهم أو لأقاربهم ، وكانت كنائس أصحاب هذه البدع- كما كانوا يسمونها- وخصوصا الذين اتبعوا تعاليم أريوس؛ تمتلك ثروات لم يُسمع عنها من قبل فلم يستطع مجلس الشيوخ بأكمله ولا أى شخص عظيم آخر فى الدولة الرومانية أن

ينافس هذه الكنائس فى الثروة، فقد كانت تمتلك كنوزاً من الذهب والفضة وحلى للزينة مرصعة بالأحجار الكريمة تفوق الوصف والعدد، وكان لهم منازل وقرى كثيرة وأفدنة من الأراضى عديدة فى أنحاء العالم وكل أنواع الثروات الأخرى الموجودة والمسماة فى أى مكان على وجه الأرض، طالما أنه ولا واحد من الطابور الطويل من الأباطرة كان قد تدخل فى شئونهم .

وقد اعتمد عدد كبير من الناس - بالرغم من أنهم كانوا يؤمنون بمعتقدات أرثوذكسية عليهم فى معيشتهم دائما ومدربين على ماكانوا يفعلونه على أساس أنهم كانوا يؤدون أعمالهم العادية، فنهب جوستنيان كل ما تمتلكه هذه الكنائس بأن صادرها قبل كل شىء، وكانت النتيجة أنه منذ هذه اللحظة حرم معظمهم من مصادر معيشتهم ، وقد أرسل جيشا من الموظفين فوراً إلى كل الاتجاهات ليجبر كل فرد يقابله على التخلى عن معتقداته التى ورثها عن أجداده ، وكان مثل هذا الاقتراح يعتبر كفراً فى نظر أهل الريف، ولهذا قرروا جميعا أن يقفوا ضد الرجال الذين يطلبون منهم هذا ، وهلك العديد منهم نتيجة لذلك على أيدى الجنود، كما وضع العديد منهم نهاية لحياته، وكانوا من الغباء بدرجة تجعلهم يعتقدون أن هذا هو طريق الله. فترك الغالبية العظمى منهم أوطانهم وذهبوا إلى أرض المنفى .

أما الـ Montanists الذين كانوا قد استقروا فى فريجيا فقد حبسوا أنفسهم فى كنائسهم ، وأشعلوا فيها النيران على الفور وهلكوا معها دون مبرر على الإطلاق، وكانت النتيجة أن بدت كل الإمبراطورية الرومانية كمنظر ضخم للمذابح والنفى، وعندما صدر قانون شبيه بهذا

بخصوص السامريين وقعت فوضى واضطراب فى فلسطين، وكان هذا القانون ينص على : «كل من يعيش فى قيصريتى ، وفى المدن الأخرى ، معتقداً أنه من الغباء أن يتحمل أى نوع من العذاب من أجل معتقدات غير معقولة نابذين اسمهم القديم وسموا أنفسهم مسيحيين تمكنوا بهذا الادعاء من التخلص من الخطر الذى يهددهم بالقانون».

وقد وافق من كان من بينهم حكيما وعاقلا على أن يبقى على ولائه للاعتقاد الجديد، ولكن الغالبية العظمى كان واضحا عليهم الشعور بالامتهان لأنهم تحديا لرغباتهم أرغموا بواسطة هذا القانون أن يتخلوا عن معتقداتهم الموروثة ، وبعد فترة قصيرة اتجهوا إلى الاعتقاد فى Monichees و Polytheists المختص بمذهب تعدد الآلهة. أما الفلاحون فقد قرروا فى اجتماع موسع قرار رجل واحد أن يسلحوا أنفسهم ضد الإمبراطور واختاروا لأنفسهم امبراطور يسمى «چوليان بن سافاروس» وهو قاطع طريق وانضموا إلى المعركة مع الجنود لفترة ، ولكنهم خسروا المعركة فى النهاية وانشقوا وتشتتواهم وقائدهم، ويقال أن مائة ألف من الرجال ماتوا فى هذا الاشتباك، وتركت أكثر الأراضى خصوبة فى العالم دون زراعة لأن أصحاب هذه الأراضى من المسيحيين أصيبوا إصابات فاجعة فى هذا الاشتباك لأنه بالرغم من الأراضى لم تكن تعطيهم أى نوع من الربح على الإطلاق إلا أنهم كانوا مرغمين أن يدفعوا للإمبراطور ضرائب سنوية دائمة بموازين فاسدة طالما أن هذه المطالب كانوا يرغمون عليها بلارحمة .

وبعد هذا اتجه إلى اضطهاد الإغريق[٣] معذبا أجسادهم، وناهبا ممتلكاتهم ، وكان العديد من هؤلاء قد قرروا ادعاء المسيحية ظاهريا

حتى يتجنبوا التهديد المؤكد، ولكن لم يمض وقت طويل حتى قبض على معظمهم وهم يؤدون طقوسهم الدينية الخاصة بالقربان والخمر، وهم يقدمون الفداء، وطقوس أخرى ، غير مقدسة- أما ما حدث للمسيحيين فسوف أفسره فى كتاب لاحق[٤].

وبعد هذا أصدر قانونا يمنع الاعتداء على البنين ولم يستفسر بدقة فيما ارتكب بعد اصدار القانون ، ولكنه بحث عن الرجال الذين خضعوا لهذا المرض الأخلاقى فى الماضى ، وسارت محاكمة هؤلاء المتهمين بطريقة غير منتظمة للغاية لأن العقوبة كانت تنزل حيث لم يكن هناك متهم، وكلمة الرجل الأعزب أو الصبى- حتى لو حدث أن قالها عبد مرغم أن يعطى دليلا دون أى رغبة ، ضد سيده - كانت تقبل كبرهان نهائى وكان الرجال المتهمون بهذه الجريمة يتعرضون للخصى ، لبذاءة اللسان من العامة . ولم يكم الجميع يعامل بهذه الطريقة الفظيعة ، فقط من يظن أنهم من الخضر أو ميسورى الحال القلائل أو من تصادف أن عارض أحد الحكام فى أى موضوع آخر.

وأيضا كانوا يحملون عداء مريراً تجاه علماء الفلك، وبناء عليه فإن الموظفين المعينين للتعامل مع اللصوص أوجدوا طريقة يسيئون بها معاملتهم ببساطة لأنهم كانوا علماء فلك، فكانوا يجلدون ظهور العديد منهم، ويضعونهم فوق الجمال لكى يعرضوهم لسخرية الجماهير فى جميع أنحاء المدينة بالرغم من أنهم كانوا رجالا كباراً ومحترمين فى جميع المجالات، بالرغم من عدم وجود دليل ضدهم إلا أنهم أرادوا السيطرة على النجوم فى مثل هذا المكان.

ونتيجة لهذه الأعمال كان عدد كبير من الناس يفر بصفة دائمة ليس فقط إلى البلاد الأجنبية ، ولكن أيضا إلى مناطق بعيدة من الحدود الرومانية . وفى كل منطقة أو مدينة كانت ترى دائما أعداداً ضخمة من الوجوه الجديدة لأن أى رجل كان يسعد بأن يبدل أرض وطنه حتى يتحاشى القبض عليه كما لو أن وطنه قد سقط فى أيدى الأعداء.

وبهذا كانت تُنهب ممتلكات من يعتبر من الميسوريين فى بيزنطة وفى كل مدينة أخرى (بعد أعضاء مجلس الشيوخ مباشرة) بالطريقة التى وصفتها بواسطة جوستنيان وتيودورا وتبقى فى أيديهم، أما كيف تمكنوا من سرقة كل ممتلكات أعضاء مجلس الشيوخ أيضا فهذا ما سأوضحه الآن:

لقد كان فى بيزنطة رجل يدعى Zeno حفيد Anthemius الذى كان قبل هذا إمبراطوراً للغرب ، ولقد عُين هذا الرجل حاكما على مصر لخدمة أغراضهما وأرسلاه فى مهمة إلى هناك . أما زينو فقد حمل كل ثروته على ظهر سفينة واستعد للإبحار ، وكان لديه كمية لايمكن وزنها من الفضة وأوعيته من الذهب الخالص مرصعة بالمجوهرات والزمرد وأحجار أخرى ذات قيمة عالية ، فدفع جلالتاهما رشوة لبعض الرجال الموثوق فى ولائهم لهما لكى ينقلوا الحمولة القيمة بمنتهى السرعة ويشعلوا ألسنة النيران فى السفينة ثم أخبروا زينو أن النيران قد شبت تلقائيا فى السفينة وأن الحمولة قد فقدت بأكلمها ، ولم يمر وقت طويل بعد هذه الحادثة ومات زينو فجأة، وفى الحال استولى الاثنان على أملاكه معتبرين نفسيهما ورثة شرعيين له لأنهما كانا قد أعدا وصية بهذا المضمون أشيع عن هذه الوصية على الملأ أنها لم تكن من صنعة.

وبأساليب مماثلة جعلا نفسيهما ورثة لـ Tatian و Demastheno وHilara والذين كانوا أعضاء قياديين فى الرتبة وفى الأمور الأخرى فى مجلس الشيوخ الرومانى. كما أنهما حصلا على ممتلكات آخرين عن طريقة تزوير خطابات وليس وصايا، وكان هذا هو الطريق الذى أصبحا بـه ورثـة : Dionysius الذى كان يعيش فى لبنان، وأيضا چون بن باسيليوس الذى كان أكثر الأعضاء تميزاً فى الرها Edessa ولـكـن بليزاريوس قد سلمه كرهينة للفرس طوعا أو كرها- كما بينت فى كتاب سابق[٥] - ورفض خسرو فى النهاية أن يحرر هذا الرجل متهما الرومان بخرق جميع الاتفاقيات التى بمقتضاها كان بليزاريوس قد سلمه چون وكان على استعداد لبيعه لأنه كان أسير حرب حينئذ، فدبرت جدة جون- والتى كانت ما تزال على قيد الحياة - فدية قدرت قيمتها بألفى جنيه «وزنا من الفضة» أو ما قيمته فضة[٦]، على أمل أن تفك رهينة حفيدها ولكن عندما وصلت هذه الفدية إلى دارا Dara علم بها الإمبراطور ومنع تكملة هذه العملية لكى- كما قال- لاتنقل الثروة الرومانية إلى السلطات الأجنبية ، وبعد فترة قصيرة سقط چون مريضا ورحل عن الحياة ، وعلى ذلك لفق «الرئيس الإدارى» للمدينة خطابا من النوع إياه الذى يقول فيه أن چون كان قد كتبه أخيراً له- لأنه كان صديقه- ليخبره أنه يرغب فى أن تؤول كل أملاكه إلى الإمبراطور.

ولايمكننى أن أدون أسماء الآخرين جميعًا والذين دبر الإمبراطور والإمبراطورة أن يصبحا ورثة لهم، وإلى أن وقعت ثورة الـ Nika [٧] كان مكتفيا بإضافة ممتلكات الأثرياء جميعا ولكن بعد أن حدثت هذه الثورة- كما كتبت فى كتاب سابق[٨]، ومنذ هذا الوقت فصاعداً

صادروا بضربة واحدة كل ممتلكات أعضاء مجلس الشيوخ تقريبا ، ووضعوا أيديهم على جميع الممتلكات القابلة للنقل ، وكل الضياع كما تمنوا ، ولكنهم نحوا جانبا الممتلكات المعرضة للضرائب الجائرة الساحقة، وبكرم مخادع باعوها إلى ملاكها السابقون ثم ضيقوا عليها الخناق بواسطة جامعى الضرائب فقلت فائدتها إلى حد يجلب العوز بأن أخذوا عليها فوائد لانهاية لها ، فأصبحوا يعيشون حياة شاقة لاتبعد كثيرا عن الموت البطىء.

ونظراً لكل هذا فإن مثلى مثل بقية زملائى من المعاصرين لم نشعر مرة واحدة أن هذين الاثنين كانا من البشر، بل كانا زوجين من الشياطين المتعطشين للدماء والذين يسميهم الشعراء «طواعين» أو «لعنة الله» على هيئة بشر لأنهما خططا سويا للوصول إلى أسهل وأسرع وسائل تدمير الأجناس البشرية بأجمعها ، كما أن أعمالهم أخذت شكلا بشريا وأصبحت بشرية- شيطانية، وبهذه الطريقة هزوا العالم أجمع ، والدليل على هذا يمكن أن يوجد فى أمور كثيرة وبصفة خاصة ما أظهروه من قوة فى أعمالهم حيث أن أعمال الشياطين تختلف بطريقة لاتقبل الخطأ عن أعمال البشر، وعلى المدى الطويل كان هناك بلاشك العديد من الرجال الذين -سواء بطريقة الصدفة أو بالطبيعة- قد أوعزوا بمنتهى الخوف إلى الناس وبجهودهم الذاتية كانوا سببا فى دمار المدن والبلاد وأى شىء آخر، أما جلب الدمار على البشرية والمصائب على العالم بأجمعه فهذا فوق طاقة أى مخلوق آخر سوى هذين الاثنين اللذان كانا -وهذا حقيقى- تساعدهما الصدفة فى محاولتهما التى تزاملا فيها على دمار البشرية نيابة عن الزلازل والأوبئة، والفيضانات ناشرة الدمار فى هذا الوقت كما

سأفسر حالاً، وهكذا لم يكن عن طريق البشرية، بل عن طريق قوى مختلفة تماما أن حدث مثل هذا الخراب.

لقد قيل أن أم جوستنيان كانت قد أخبرت بعض صديقاتها المقربات أن جوستنيان لم يكن ابن زوجها Sabbatius ، ولا ابن رجل على الإطلاق ، لأنها عندما كانت على وشك أن تحمل به زارها شيطان لم يكن مرئيا ، ولكنه أعطاها إحساسا واضحا أنه كان فعلا معها مثل رجل على اتصال جسدى مع امرأة ثم اختفى كالحلم .

وأيضا بعض من كانوا فى صحبة الإمبراطور فى ساعة متأخرة من الليل، يتدحثون معه- بشكل مؤكد فى القصر- وهم رجال من أعلى الشخصيات ، هؤلاء الرجال اعتقدوا أنهم رأوا شكلا شيطانيا غريبا فى مكانه ، وأعلن أحد الرجال أنه أكثر من مرة نهض من على العرش الإمبراطورى ومشى فى الحجرة بشكل دائرى لأنه لم يكن معتاداً على البقاء جالسا لمدة طويلة ، وفجأة اختفى رأس جوستنيان لفترة مؤقتة بينما استمر باقى جسده سائراً فى الحركة الدائرية ، واعتقد من لاحظه أن شيئا خطيراً قد أصاب إبصاره فوقف لمدة طويلة حزينا لايعرف ماذا يفعل، ولكن بعد فترة عادت الرأس إلى الجسد، واعتقد أن ما كان ناقصا من لحظة قد مُلِيءَ مكانه على عكس توقعه ، وقال رجل آخر أنه كان يقف بجوار الإمبراطور عندما كان يجلس ورأى وجهه قد تحول فجأة إلى كتلة من اللحم ليس لها شكل ، فلم يكن الحاجبان ولا العينان فى مكانهما الطبيعى ولم تبد عليه أى ملامح مميزة على الإطلاق، وبالتدريج رأى الوجه يعود إلى شكله المعتاد.

أنا لم أشاهد شخصيا الأحداث التى أصفها ولكنى سمعت عنها من رجال أكدوا أنهم رأوها فى حينها ، وقيل أيضا أن راهبا معينا يتمتع بنعمة الله الوفيرة شجعه من كانوا يعيشون معه فى الصحراء أن يتجه إلى بيزنطة لكى يتحدث نيابة عن أقرب جيرانهم الذين كانوا يعانون من العنف والظلم الذى يتحمله بشر، وعند وصوله إلى هناك سمح له بالدخول إلى حضرة الإمبراطور، ولكن عندما كان على وشك الدخول إلى قاعة الاستقبال الملكية ووضع قدما داخل الباب، سحبها مرة أخرى فجأة وتراجع ، فشجعه الحراس الذين كانوا يصحبونه ، وآخرون ممن كانوا حاضرين، وحثوه على الاستمرار، ولكنه لم يجبهم ، وكما لو أنه قد أصيب بالجنون المفاجىء اندفع عائداً إلى المكان الذى كان يقطنه ، وعندما سأله مصطحبيه أن يفسر هذا التصرف الغريب فهمنا أنه قال على الفور : أنه قد رأى ملك الشياطين فى القصر جالسا على العرش، ولم يكن على استعداد لملاقاته أو أن يطلب منه أية خدمة.

وعلى أية حال، كيف يمكن أن يكون هذا الرجل شيئا آخر إلا شيطانا مريداً فى الوقت الذى لم يشبع شهيته الطبيعية للأكل والنوم، ولكنه كان يأخذ قضمة سريعة من طيب الطعام الموضوع أمامه ثم يتجول فى القصر خلال ساعات غير محدودة من الليل بالرغم من أنه كان يشعر بعاطفة شيطانية تجاه متع أفروديت. ونفهم أيضا من بعض عشاق تيودورا أنه بينما كانت لاتزال على المسرح انقض عليهم عفريت من نوع ما ليلا وطردهم من الحجرة حيث كانوا يقضون الليل معها، كما كانت توجد راقصة تدعى ماكيدونيا والتى كانت تنتمى إلى حزب الزرق فى أنطاكية ، وكانت قد حصلت على سلطة عظيمة عن طريق كتابة

الخطابات إلى جوستنيان فى الوقت الذى كان فيه جستين ما زال سيد الإمبراطورية وكانت تستطيع أن تدمر بسهولة أى فرد بارز من المواطنين فى المناطق الشرقية متسببة فى مصادرة أملاكهم إلى خزائن الدولة، أخبرنا أن هذه المرأة عندما كانت ترحب بتيودورا عند عودتها من مصر وليبيا رأت أنها كانت مضطربة جدا، ومتكدره نتيجة الإهانات التى تلقتها على يدى Hecebolius [٩]، ومن ضياع أموالها أثناء الرحلة، ولهذا بذلت ماكيدونيا ما فى وسعها لتعزيتها والترفيه عنها مذكرة إياها أن القدر يستطيع أن يلعب دور المحسن ويعطرها بوابل من الثروة، وحينئذ -كما علمنا- أعلنت تيودورا أنها فعلا أثناء الليلة الماضية رأت حلما أخبرها بألا تقلق على الأموال أكثر من هذا فإنها عندما تصل إلى بيزنطة وتنام مع ملك الشياطين وتعيش معه كزوجة له من كافة الوجوه فسوف تصبح صاحبة لكل الأموال التى تتمناها.

وعلى أية حال كانت هذه هى الحقائق كما بدت لمعظم الناس، لقد كان هذا هو المجال الذى تسير فيه شخصية جوستنيان كما صورت، ورغم ذلك فقد أظهر نفسه أليفا أنيسا لمن كان على اتصال به، فلم يمنع أى فرد من الدخول إلى حضرته. وحتى هؤلاء الذين خالفوا القانون بالطريقة التى تحدثوا أو وقفوا بها فى حضرته لم تثر غضبه، ولم يجعله هذا يخجل عند مواجهة هؤلاء الذين كان ينوى تدميرهم، كما أنه لم يظهر دواعى غضبه أو مضايقته ليبين شعوره ناحية الذين اخطأوا فى حقه، ولكن بتعبير صدوق على وجهه ودون أن يرفع حاجبه، وبصوت لطيف كان يأمر بإعدام عشرات الآلاف من الأعداء، كما كان يأمر بحرق المدن مسويًا إياها بالأرض، مصادراً كل الممتلكات لخزائن الدولة

إن هذه الشخصية تجعل أى إنسان يتخيل أن له نظرة الحمل، أما إذا حاول أحد أن يسترحمه متوسلا، متذللا ، ليستعطفه فى أن يسامح من تعرضوا للوقوف ضد رغباته فإنه يكشف عن أنيابه ويغضب كالوحش[١٠]، فيبدو على وشك الانفجار لدرجة أنه لم يكن يستطيع واحد من أصدقائه المقربين - كما يدعون- أن يراوده أمل فى الحصول على العفو.

كان يبدو على جوستنيان أنه مؤمنا عن اقتناع بالمسيح ، ولكن هذا كان يعنى الدمار لرعيته لأنه كان يسمح للقساوسة أن يستخدموا العنف ضد جيرانهم دون أن يعاقبهم ، وعندما كانوا ينهبون الممتلكات المجاورة لضياعهم كان يتمنى لهم السعادة معتقداً أنه بهذا العمل يمجد الله، وعندما كان يحكم فى مثل هذه القضايا فإنه كان يعتقد أن هذا إظهاراً لورعه لو أن أى فرد من مدعى التدين تصيد له شيئا لاينطبق عليه، كان يتركه حراً طليقا بعد كسب قضيته . لأنه العدالة كانت فى نظره فوز القساوسة على أعدائهم، وعندما كان يضع يده على ممتلكات الأفراد الأحياء أو الأموات بالأساليب المستهترة ويعطى هذه الممتلكات لإحدى الكنائس فإنه كان يهنىء نفسه على مظهر التقوى هذا. بالرغم من أن هذا كان يحدث للتأكد من أن هذه الممتلكات سوف لاتعود إلى أصحابها الذين نهبت منهم.

ولتحقيق أهدافه ذهب أبعد من هذا فدبر عدداً لايمكن حصره من جرائم القتل، كما أن طموحه كان ينطوى على إجبار الجميع على اعتناق مبدأ من العقائد المسيحية، وكان يدمر بطيش كل من لايمتثل لأوامره، محتفظا بادعائه للتقوى حيث أنه لم يكن يعتبرها جريمة قتل طالما أن

هؤلاء الذين كانوا يقتلون لم يكونوا يشاركونه فى العقيدة، وبهذا وضع كل جهوده قلبا وقالبا فى المذابح المستمرة لأبناء رعيته، وكان شغله الشاغل - هو وزوجته- هو تلفيق الاتهامات لإرضاء هذا الطموح فكلاهما لم يتميز عن الآخر فى الأهداف، وحيثما كانت هناك اختلافات حقيقية فى شخصيتهما فإنهما متساويان فى الشر، وبالرغم من أنهما كانا بظهران خاصية متضادة تماما فى تدمير رعيتهما لأن الإمبراطور كان غير ثابت فى حكمه كدوارة الريح تحت رحمة الذين كانوا يودون فى أى لحظة أن يديروه فى أى اتجاه يعتقدون أنه مناسبا ، طالما أن خططهم لم تكن مركزة على اتجاه الكرم أو إنكار الذات، وكان دائما يعرض نفسه لضيوف النفاق كما كان أعضاء البلاط المنافقون يستطيعون بمنتهى السهولة أن يقنعوه بأنه كان يحلق فى الآفاق ويسير فى الهواء[١١].

وفى أحد الأيام وبينما كان Tribonian يجلس بجواره على الأريكة عبر عن خوفه الشديد من أن يحمل الإمبراطور إلى السماء ويختفى عن أعين الناس عاجلا أو آجلا كمكافأة له على تقواه. وقد فسر هو مثل هذا التمجيد «أم أنه كان سخرية؟» طبقا لتصوراته السابقة . ومع هذا فلو حدث أن جامل شخصا لفضائله بطريق الصدفة فإنه يفضحه بعد لحظة على أنه سافل ، ومن ناحية أخرى كان يصب لعناته على أحد رعاياه ثم يعود ويمطره بوابل من المجاملات - أو كانت تبدو هكذا- فقد كان متغيراً دون أدنى إثارة لأن أفكاره كانت تناقض كلماته وتناقض مايود أن يوضح من انطباع.

ولقد أشرت إلى مزاجه فيما يختص بالصداقة والكراهية والتى كانت شاهداً على الجزء الأكبر من أعمال هذا الرجل، وكأى عدو كان عنيداً ،

صلبا ، وبالنسبة لأصدقائه كان متقلبا جدا، حتى أنه جلب دماراً فعليا على كثير ممن كانوا ذو مكانة عالية لديه، كما أنه لم يعيد صداقته مع أى فرد كان قد سبق أن كرهه. أما هؤلاء الذين كان يعرفهم معرفة جيدة ويقدرهم تقديراً عاليا فقد اعتاد أن يخونهم ثم يقدمهم بلطف إلى زوجته أو أى فرد آخر ليقوم بإعدامهم بالرغم من أنه كان يعلم جيدا أن هؤلاء الناس سوف يموتون بسبب ولائهم له ليس إلا لأنه لم يكن موضع ثقة فى أى شىء سوى اللا إنسانية والطمع كما رأى العالم كله ، لأن استبعاده عن الطمع كان فوق قدرة البشر، ولذلك كان فى بعض الحالات يرفض حتى أن ينصت إلى تشجيع زوجته ويستبعد من موازينها الأمل فى ربح كبير من الممكن كسبه من مشروع كانت تشجعه بالدخول فيه لأنها كانت تتخيله مربحا، فكان يعترض عليها بصوت عالٍ فقد كان مستعداً دائما لسن القوانين وإبطالها لو أن هناك مكسبا حراما، ويعطى قرارات قضائية مخالفة للقانون الذى سنه هو شخصيا ، ولكنه كان يعطى هذه القرارات عندما تقوده رؤية الفائدة المالية الأكبر حجما وأروع وعداً بالغنى.

إنه لم يكن يرى حطة على الإطلاق فى ارتكاب السرقات الحقيرة المتوالية وحرمان رعيته من ممتلكاتهم ، وبمعنى آخر ففى الحالات التى لايستطيع فيها أن يخطف كل شىء بادعاء أو بآخر فإنه إما أن يقذف بالاتهامات من فراغ أو أن يدعى وصية لا وجود لها، وأثناء حكمه للرومان لم يترك عقيدة أو تعليم من تعاليم الله ثابتا، فلم يكن هناك دوام لقانون ، أو ثقة فى المعاملات التجارية أو أى عقد يفى بشىء.

وعندما كان يرسل أصدقاءه المقربين فى بعض المهام ، ويحدث أن

ينهبوا بعض من يعترضونهم، ويأخذوا بعض الغنائم فإن جلالته كان يقرر فوراً أن هؤلاء يستحقون أن يعترف بهم كرجال ذو مكانة خاصة طالما أنهم نفذوا التعليمات حرفيا، ولكن إذا عاملوا هؤلاء الرجال برأفة بعد عودتهم إلى البلاط فإنه يسيىء التصرف معهم من هذا الوقت فصاعداً وفى الحقيقة يتحول إلى عدو نشط ويحذف هؤلاء الرجال من قوائمه معتبراً إياهم من طراز بال لا ترجى منه فائدة ولايستدعيهم لأداء أى خدمة أخرى، وينتج عن هذا أن يبذلوا جهوداً لإقناعه بشجاعتهم الشخصية بالرغم من أن سلوكهم العادى كان يختلف تماما عن ذلك، كما أنه كان يعطى وعداً لبعض الناس أكثر من مرة مؤكداً لهم تنفيذ هذا الوعد مرة بالقسم أو بكتابة ما يدل على هذا، لكن سرعان ما يحاول نسيانه مفترضا إن مثل هذا السلوك كان يكسبه الإعجاب .

هكذا كان جوستنيان يتصرف غالبا ليس فقط تجاه رعاياه ، ولكن تجاه العديد من أعدائه أيضا- كما بينا فيما قبل[١٢]- ولقد كانت حاجته للنوم قليلة جدا، وشهيته للطعام والشراب قليلة بشكل غير عادى حيث كان يلتقط قطعة صغيرة جداً بأطراف أصابعه قبل أن يترك المائدة ، لأن مثل هذه الحاجات كانت تبدو غير لائقة له وكما لو أن الطبيعة حاولت أن تجعل منه سائراً على حبل Toe the line وكان يبقى دون طعام لمدة يومين وليلتين خاصة إذا استدعت هذا تعاليم أيام ما قبل عيد الفصح، وكما قلت غالبا ما كان يبقى دون طعام لمدة يومين ويختار أن يعيش على القليل من النباتات البرية وبعد أن ينام- ربما لمدة ساعة واحدة- كان يقضى بقية الليل يمشى فى حركة دائرية فى القصر، ولكن لو أنه كان على استعداد أن يقضى مثل هذا القدر من الوقت فى العمل الجيد لاستمتعت الأمة بدرجة عالية من الرخاء. ولكنه بدلا من هذا

استخدم كل قدراته الطبيعية لتدمير الرومان ونجح فى أن يجعل الرقى السياسى بأجمعه ينهار إلى الحضيض .

إن يقظته الطويلة وحرمانه وجهوده المضنية، كان يجتازها دائما لهذا الهدف فقط، وكان كل يوم على الدوام يدبر مصائب أكبر لشعبه ليتهلل هو بها ، لأنه كما لوحظ من قبل كان شغوفا بطريقة غير عادية بالاختراع وسريعا فى تنفيذ الجرائم الغير أخلاقية ، وكانت النتيجة النهائية أنه حتى الصفات الحميدة الموجودة فى طبيعته كانت أداة فى تدمير شعبه ، فكل شئون الدولة كانت مقلوبة رأسا على عقب، ولم يبق من التقاليد المكتسبة شيئا على الإطلاق، وسوف أذكر أمثلة قليلة، وأما الباقى فيجب أن نتركه فى صمت حتى لاتستمر قصتى إلى الأبد.

ففى المقام الأول لم يكن لدى الإمبراطور أى من الصفات التى من شأنها أن ترفع كرامة إمبراطور أو توحى بامتلاك هذه الكرامة ، فقد كان فظا تماما فى كلامه، وملبسه ، وطريقة تفكيره، وكلما أراد أن يصدر أمراً لينشر باسمه، لم يكن يرسله بالطريقة المعتادة إلى مكتب حامل الأختام Quaestor لنشره، بل كان يعتقد أنه من الأنسب غالبا- بالرغم من ضعف كلماته- أن يقرأها بصوت عالٍ ويقف معه جمهور عظيم حتى لايمكن لأى من الذين يسيىء إليهم هذا الأمر أن يلجأوا للتذمر.

كما لم يكن يسمح للموظفين المعروفين بحملة الأسراء[١٣] بحقهم فى كتابة بعثات الإمبراطور السرية- مثل هذه المهام التى من أجلها قد عينوا فعلا- ولكنه كان يكتب كل شىء بنفسه- فمثلا- عندما كان من الضرورى أن يفوض قضاة المدينة فإنه كان يضع لهم المسار الذى يجب أن يتبعوه فى الحكم لأنه لم يكن ليسمح لأى فرد فى الإمبراطورية أن

يفصل فى نزاع طبقا لحكمه المستقل، ولكنه يستمر فى طريقه بعناد، وبكبرياء جنونى يقرر بنفسه الأحكام التى يجب أن يعدها له مختص ويقبل برهانا أشاعه أحد الخصوم، ودون تحرى سليم يلغى سريعا القرارات التى كان قد أصدرها سابقا، ولم يكن يتأثر بأى قانون أو مبدأ للعدالة، بل يخضع للطمع الدنىء دون إخفاء ، لأن الإمبراطور كان يقبل الرشوة دون خجل فجشعه الفظيع قد سلبه كل إحساس بالخجل ، وكثيراً ما كانت الأمور التى اتفق عليها الإمبراطور مع مجلس الشيوخ تنتهى بقرار مختلف تماما. لأن مجلس الشيوخ كان يجلس لمجرد صورة حية. دون أى سلطة لإصدار قرار أو تقديم أى خير، فهم مجتمعون من أجل المظاهر، ومن أجل إبراز قانون قديم لأنه لم يكن هناك فرداً واحداً فى هذا المجلس مسموح له أن ينطق بكلمة واحدة على الإطلاق .

وكان الإميراطور وزوجته-آخذين النصيب الأعظم- يتظاهر بالانحياز للقضايا «محل الإصدار» ، أما النصر فقد كان من نصيب الجانب الذى كانوا قد اتفقوا عليه فعلا، أما إذا خالف إنسان القانون وأحس أن النصر ليس حليفه فما كان عليه إلا أن يقذف بكمية أكثر من الذهب إلى هذا الإميراطور حتى يحصل على البراءة التى كانت عكس كل التوقعات القائمة. ثم إذا استعان أحدهم بالقانون الأول الذى كان قد ألغى فإن جلالته كان مستعداً تماما أن يغير إصدار هذا القانون ويستبدله بقانون جديد، ولم يكن هناك شىء ذا سلطة دائمة ، بل أن ميزان العدالة كان يتحرك عشوائيا فوق المكان متجها ناحية كتلة الذهب الأكبر التى كانت تنجح فى جذب الميزان إلى أسفل . أما مساحة العدالة فقد كانت ساحة سوق بالرغم من أنها كانت فى يوم من الأيام قصراً حيث كانت تتباهى حجرات البيع بنفسها والتى كان فيها البيع لمن يدفع أكثر، ولم يخص

هذا إدارة العدالة فقط، بل صنع القوانين أيضا. وكذلك فإن الشهود[١٤] « أو من يعتد بشهادتهم» كما كانوا يدعونهم، لم يصبحوا راضين عن حمل التماسات السائلين للإمبراطور ثم يبلغون رجال القضاء -كالعادة- قرار الإمبراطور بخصوص الملتمسين ، بل إنهم بدلا من هذا كانوا يجمعون من كل الأطراف «قياسا مزيفا»[١٥]، وبادعاءات مختلفة وحيل[١٦] كانوا يخدعون بها جوستنيان ، الذى كان مزاجه الطبيعى يعرض لمثل هذا هذه الفنون المخادعة ثم بمجرد أن يخرجوا ويمنعوا الخصوم من الاتصال بهؤلاء الذين كانوا قد اجتمعوا بهم فإنهم حينئذ يبدأون ابتزاز ما يستطيعون ابتزازه من الأموال من هؤلاء الناس العزل دون أن يكشفوا أنفسهم لأى من أقاربهم.

أما الجنود القائمون على الحراسة فى القصر فقد اعتادوا أن يقفوا بجوار القضاة فى الرواق الملكى، وبقوة وحشية يضمنون لأنفسهم الحكم الذى يريدونه وكان الجميع- باستثناءات قليلة- قد تركوا وظائفهم فى هذا الوقت متجولين كما يحلو لهم فى الطرق الممنوعة عليهم وليس من المفروض أن تطرق. وكانت الأمور تسير بمنتهى الفوضى ، لاتحمل أسماءها الصحيحة وكان أعضاء الحكومة مثل أطفال يلعبون «ملك القلعة» King of the Castle .

وعلىّ أن أترك جزءاً كبيراً دون أن أتحدث فيه كما أشرت فى بداية هذا الجزء. ولكن يجب أن أوضح من كان الرجل الأول الذى حث الإمبراطور على قبول الرشوة وهو جالس فى مقعد القاضى. لم يكن سوى ليون Leon : مواطن من صقلية، كرس نفسه بجنون لجمع المال، وكان هذا الرجل ليون أمير المنافقين ، له قدرة بلهاء على فرض رغبته

على عقول الجهلة وامتلك قوى للإغراء ساعدته فى تحويل خشونة الإمبراطور وغباؤه لتدمير أبناء وطنه. إن هذا الرجل كان أول من حث جوستنيان أن يبيع أحكامه القضائية بالمال، فعندما قرر جلالته فى أحد المرات أن يسرق ، بالطريقة التى وصفتها، فإنه لم يكن يتراجع على الإطلاق واستمرت فضائحه هذه وازدادت وكان كل من له هدف أن يرفع دعوى على غير أساس ضد أى مواطن أمين فإنه كان يتوجه فوراً إلى ليون، فيوافق على شرط أن جزءاً من هذه الممتلكات - محل النزاع- يجب أن يؤول إلى الإمبراطور وليون، فكان يكسب القضية ويأخذ غنيمة. تحديا لكل مبادىء العدالة قبل أن يترك القصر. ومكن هذا الأمر ليون أن يجمع أموال على نطاق هائل وحصل على قدر كبير من الأرض وفعل ما لم يفعله أى فرد آخر ليجعل الإمبراطورية الرومانية تجثوا على ركبتيها.

كما لم يكن هناك أى ضمان لهؤلاء الذين يُوقعون عقوداً ، لا قانون، ولاقسم ولاضمانات مكتوبة، ولاعقوبة قانونية، ولا أية حماية من أى نوع ، إلا بإلقاء الأموال فى حِجْر ليون والإمبراطور، ولاحتى هذا أمكن أن يؤكد أن ليون سوف يستمر بنفس الطريقة فقد كان مستعداً تماما أن يبيع خدماته للجانب الآخر أيضا، فقد كان يسرق كلا الطرفين دائما فلم يرد على خاطره، إذن ، أن يعامل بإهمال كامل هؤلاء الذين قد وضعوا ثقتهم فيه وأن يتصرف ضد مصالحهم لأن هذا أمراً معيبا- وفى نظره- طالما أن الربح كان يأتى له فلاضرر من أن يلعب لعبة مزدوجة .

الهوامش

١- الكتابين الأول والثانى I, II .

٢- ينتسب أصحاب هذه الهرطقات والبدع الدينية إلى عقيدة مانى فى الفارسية.

٣- أتباع الوثنية القديمة.

٤- لم يتم كتابة هذا الكتاب .

٥- الكتاب الثانى II .

٦- تساوى الآن ١١,٢٠٠ ألف جنيه.

٧- فى سنة ٥٣٢م اتحد حزبى الزرق والخضر فى ثورة يائسة ضد جوستنيان عزمت بثورة النيقا، وتم القضاء على هؤلاء الثوار وقمع الثورة، وقد أشرنا بشىء من التفصيل إلى هذه الثورة.

٨- الكتاب الأول I .

٩- تم الإشارة إليه فيما قبل.

١٠- مستوحاه من أرستوفانيس فى «السلام».

١١- اشارة إلى سقراط فى «السحب» لأريستوفانيس.

١٢- الكتاب الثامن VIII .

١٣- الكتبة الموثوق فيهم .

١٤- الموظفون الذين كانوا يعملون كقناة اتصال بين الإمبراطور وعملائه.

١٥- مستعارة من «السحب» لأريستوفانيس.

١٦- بالتوافق مع «فرسان» أريستوفانيس.

بعض المراجع المقترحة للاستزادة
والمعلومات عن عصر جوستنيان

- Barker, Social and Polotical Thought in Byzantium, Oxford, 1957 .

- Baynes, N.H., The Byzamtine Empire, London , 1926.

- _____ , Byzantini Studies , London, 1955 .

Baynes & Moss (ed.) , Byzantium, Oxford, 1948 .

- Bury, J.B., Ahistory of the Eastern Roman Empire, London, 1912.

- _____ , History of the later Roman Empire from Arcadius to Irene, 2 vols, London, 1899 .

- Davis, R.H.C., A History of Medieval Europe from Constantine to St. Louis, London, 1975 .

- Diehl, Ch , Etudes Byzantines, Paris, 1905 .

- _____ , Figures Byzantines, 2, Série, Paris, 1906-8 .

- _____ , Justinien et la civilization byzantine au Vle Siécle , Paris, 1901 .

- _____ , Histoire de L'Empire Byzantine , Paris, 1930 .

- _____ , Byzantium : Greatness and Decline , New Jersy, 1954 .

- Duchesne, M.L., Histoire anciene de L'eglise, 3 tons, Paris, 1911 .

Gregoire, H., Le Peuple de Constantinople on les Bleus et les Vérts Comptes rendus de L'Acadenia des inscriptions et Belles Lettres, 1940 .

- Hardy, E.R., Christian Egypt: Church and People. Christianity and nationalism in the Patriorchate of Alexandria , New York , 1952 .

- Hefele, C. J. , History of the Councils of the Church, trans. from the German in 5 vols. and ed. by W.R. Clark , Edinburgh, 1972 .

- Holmes, W.G., The Age of Justimian and Theodora, 2 vols, London, 1912 .

- Hughes, Ph., Ahistory of the church, 2 vols, London, 1948 .

- Hussey, J., Church and Learning in the Byzantine Empire, 867-1185, London, 1937 .

- Janssens, Y., Les Bleus et les Verts Sous Maurice , Phocas, et heraclius, Byantion, III, 1936 .

- John of Ephesus, Ecclesiastical History , trans. payn Smith, Oxford, 1860 .

- Jones, A.H.M., The Greek city from Alexander to Justinian , Oxford, 1940 .

- Justinian, Corpus Juris civilis, Institutiones, trans. by Abdy and Walker, Cambridge, 1876 .

- _____ , Constitiones, ed. Zacharia von Lingenthad, Leipzig, 1884-1891 .

- _____ , Edicta. ed. Zacharia von lingenthal. Leipzig 1884-5 .

- _____ , Digest - trans - Monro, C.H. Cambridge, 1940 .

- _____ , Institutiones und Digesta, ed- Kruger and Mommsen. Berlin, 1889 .

- _____ , Codex, ed. Kruger . Berlin , 1892 .

- _____ , Novelleae, ed. Kroll, Berlin , 1928 .

- Lamb, H. Constantinople , New York , 1957 .

- Lambert, W., The Canons of the First four general Councils of the Church and those of the early local Greek Synods. London. S.D.

- Latourette, K.S., A History of Christianity , London, 1955.

- _____ , Ahistory of the expansion of Christanity. 7vols, New York , 1937 Sqq.

- Lebon, J., Le monopphysisme Severien , Louin , 1909.

- Lopez, R.S., "Silk Industry in the Byzantine Empire" Speculum XX, 1945 .

- Levtchenco, M.V., Byzance des Origines, A 1453, Paris, 1949 .

- Magonlias, H.J., Byzantine Christianity: Emperor, Church, and the West, Chicago, 1970 .

- Malalas,

- Meyendorff, J., "Justimian: The Empire and the Church" in Dumparton Qaks Papers, vol. 22, 1968 .

- Neale, J.M., A history of the Holy Eastern Church, Patriarchate of Alexandria, 2 vols, London, 1847 .

- Ostrogoraky, G., History of the Byzantine State, trans. by Joan Hussey, Oxford, 1956 .

- _____ , Pur L'Histoire de la Feadalité Byzantine , Brussels, 1954 .

- Procopius, The Wars,

The Histories, The Buildings, and The Secret History , VIII vols, Cambridge and harvard University Press, 1914-1940 .

- Rice, T.T., Byzantium, London, 1969 .

- Stanley , A.F., Lectures on the History of the Eastern Church, London, 1864 .

- Ure, P.N., Justinian and his Ages, Frist edition, London, 1951 .

- Vasilive, A.A., History of Byzantine Empire, 2 vols, masidon, 1928 .

- _____, Justin the First, Cambridge mass, 1950 .

- _____ , "justin the First and Abyssinia", Byzantisch Zeaitschrift XXXIII, 1933 .

- ware , T., The Orthodox Church, Penguin Books , 1967 .

- Whitham, M. A., The History of the Christian Church to the Separation of the East and West, 4th edition, London 1931 .

- Zachariah, The Syriac Chronicle, trans, by Hamilton & Brooks, London, 1899 .

أسد رستم (دكتور):

الروم ، جزءان، بيروت، ١٩٥٥ . حرب في الكنائس، بيروت ١٩٥٨ .

اسحق عبيد : (دكتور)

- الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، القاهرة ، ١٩٧٢ .

- من آلارك إلى جوستنيان، القاهرة ، ١٩٧٣ .

السيد الباز العريني (دكتور):

الدولة البيزنطية ، دار النهضة العربية، ١٩٨٢ . مصر البيزنطية ، دار النهضة العربية، ١٩٦١ .

أومان ، شارل :

الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة د. مصطفى طه بدر، دار الفكر العربى ، ١٩٥٣ .

بيتز، تورمان:

الإمبراطورية البيزنطية، الطبقة الأولى، تعريب د. حسين مؤنس، محمود يوسف زايد، القاهرة، ١٩٥٠ .

جيبون ، ادوارد:

اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية ، ٣ أجزاء، ترجمة محمد على أبودرة، نجيب اسكندر، د. محمد سليم سالم، القاهرة، ١٩٦٩ .

حسنين محمد ربيع (دكتور):

دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، ١٩٨٦ .

ديورانت ، ول:

قصة الحضارة ، ٤٢ جزء ، القاهرة ، ١٩٦٥-١٩٨٧ .

رأفت عبد الحميد (دكتور):

بيزنطة بين الدين والفكر والسياسة، دار عين ، ١٩٩٧ .

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور):

أوربا العصور الوسطى، الجزء الأول، الطبقة السادسة، الأنجلو المصرية ١٩٧٥ .

عبد القادر أحمد اليوسف (دكتور) :

الإمبراطورية البيزنطية ، بيروت ، ١٩٦٦ .

فيلوباترون:

سلسلة آباء الكنيسة، القاهرة ، ١٩٩٢ .

كانتور ، نورمان ف:

العصور الوسطى الباكرة، الجزء الأول، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، دار عين للدراسات ، ١٩٩١ .

محروس عبد القدوس سعيد:

جوستنيان وسياسة الاسترداد ، رسالة ماجستير غير

منشورة بكلية الآداب جامعة الزقازيق، ١٩٨٧ .

محمد فتحى الشاعر (دكتور):

السياسية الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عصر الإمبراطور جوستنيان ، دار المعارف ، ١٩٩٢ .

هايد ، ف:

تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ٤ أجزاء ، ترجمة أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥ .

هسى ، ج.م:

العالم البيزنطى، ترجمة د. رأفت عبد الحميد، الطبعة الثانية، دار عين للدراسات ، ١٩٩٧ .

محتويات الكتاب

صفحة

تقديم ٣
مقدمة ٥
مقدمة الترجمة الإنجليزية ٩
الغرض من هذا الكتاب ٤١
الهوامش ٤٣
الفصل الأول: بليزاريوس وأنطونينا ٥١
الهوامش ٧٨
الفصل الثانى : جستين وجوستنيان وتيودورا ٨١
الهوامش ١٠٧
الفصل الثالث : سوء حكم جوستنيان ١٠٩
الهوامش ١٢٩
المصادر والمراجع ١٣١

رقم الإيداع ١٦٨٦٨/٢٠٠٠

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 322 - 045 - 1

دار روتابرينت للطباعة ت٠ ٧٩٥٢٣٦٢ - ٧٩٥٠٦٩٤

٥٣ شارع نوبار - باب اللوق

في تاريخ الامبراطورية البيزنطية

التاريخ السري لبروكوبيوس

حياة الامبراطور جستنيان وثيودورا

ترجمة : الدكتور سبرى أبو الخير

Bibliotheca Alexandrina
0354143

عين
للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES